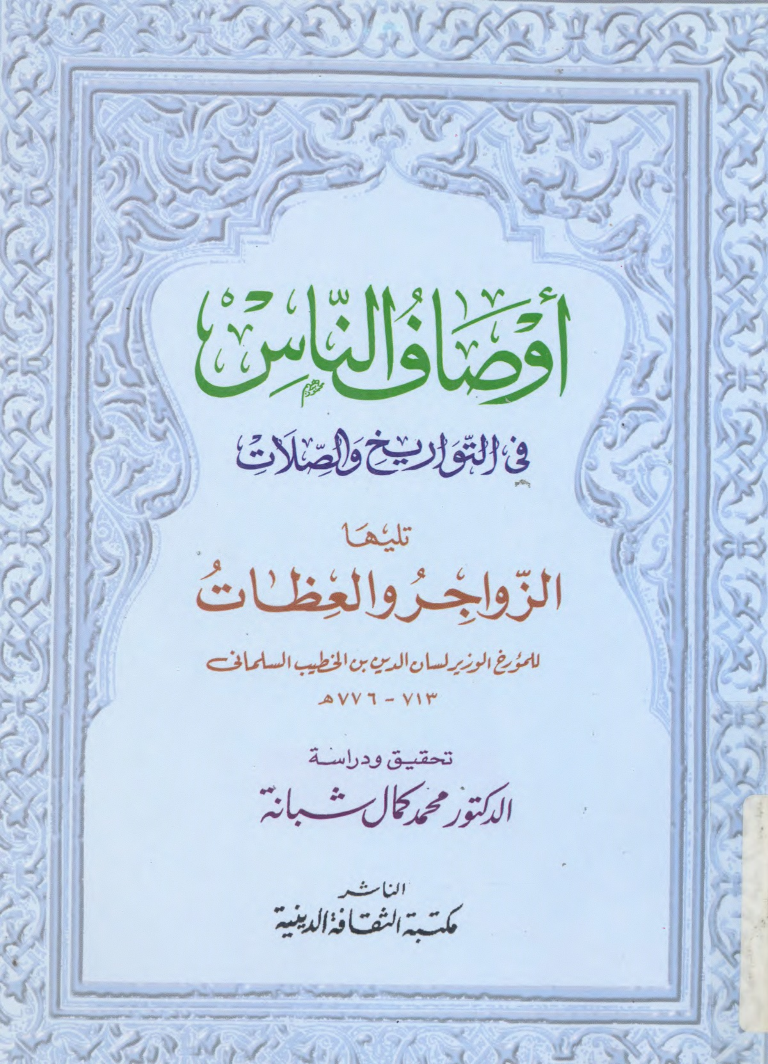


أوصاف الناس

في التواريخ والصلات

تليها

الزواجر والعظات

للمؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني

٧١٣ - ٧٧٦ هـ

تحقيق ودراسة

الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

أوصاف الناس

في التواريخ والصلات

تليها

الزواجر والعظات

للمؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني
٧١٣ - ٧٧٦هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

طبعة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	٢٠٠٢ / ٧٧١١
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -069 - 2



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد ـ الظاهر ـ القاهرة
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ ـ ف: ٥٩٣٦٢٧٧

مـــقـــدمـــــة

يطيب لى اليوم ان اضيف الى التراث الاندلسى تحقيقا لاحد مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب التاريخية الادبية ، وهو كتابه « أوصاف الناس فى التواريخ والصلات » ، الذى أورده — ضمن ما اورد — فى مؤلفه الكبير « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » .

لقد اشتمل الكتاب الذى نحن بصدده على تراجم لشخصيات اندلسية ومغربية ، معظمها ممن عاصروا ابن الخطيب ، وعاشوا احداث العصر (القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) ، فيهم الكاتب والوزير والقاضى والقائد والعالم ، بل منهم من حاز اكثر من رتبة من هذه الرتب ، على نمط الشخصية البارزة فى العصر الاسلامى الوسيط . وقد بلغ عدد المترجم لهم سبعا وخمسين شخصية بعد المائة ، مفتتحا « القسم الاول » منهم بما سبق للمؤلف ان اورده فى كتابه « التاج المحلى » . حيث يقول فى البداية :

« اوصاف الناس فى التواريخ والصلات »

« ومن ذلك ما صدر عنى مما ثبت فى كتاب « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » فى وصف :

« ابى جعفر ابن الزيـات » .

... وهكذا يسترسل فى ايراد التراجم لهذا القسم ، ويبلغ عددها ثمان وتسعين ، منتهيا منها بشخصية « الاديبة ام الحسين بنت احمد الطنجالى ثم يبدا فى الترجمة للقسم الثانى منها مثلما أورده فى كتابه « الاكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر » عندما يذكر :

« ومن ذلك ما ثبت فى « الاكليل الزاهر ، فيمن فضل عند نظم التـاج من الجواهر » ، فى وصف :

« الخطيب ابى عبد الله الساحلى المالقى الولى » .

الى ان يأتي على شخصيات هذا القسم البالغ عددها سبعا وخمسين ، حيث ينتهي منهم ((بوصف احد الفضلاء)) ، دون أن يحدد اسمه ، على غير عادته في كافة من ترجم لهم من القسمين .

وغني عن البيان ان ابن الخطيب بترجمته لهؤلاء وغيرهم — لاسيما في القسم الاول ((من الاوصاف)) — قد تمكن الى حد بعيد من أن يقدم لنا صورة شيقة ذات موضوعية ومنهجية عرفت عنه في تاريخه وخاصة في باب التراجم، اذا ما استثنينا بضعة أفراد تناولهم قلمه ممن اظلم الجو بينه وبينهم فكادوا له أو كاد لهم ، أمثال القاضي النباهي صاحب ((المرقبة العليا)) والـذي استصدر الفتوى باعدام ابن الخطيب شرعـا ، والوزيـر ابن زمـرك مؤازر النباهي في حملته ضد ابن الخطيب ، وبضعة أفراد من معاصري وزيرنا لم يكن على وفاق معهم ، فجاءت ترجمته لهم في ظل تلك الملابسات مشوبـة بالانفعال النفسي ، ومجانبة الواقعية . بيد انه والحق يقال — من خـلال مطالعاتي ودراساتي لتراجم لسان الدين عن معاصريه ولاسيما في ((اوصاف الناس)) التي نحن بصددها — لم اصادف مؤرخا بتلك الدقة في الاحاطـة والشمول لمن تناولهم قلمه وصفا ، في أسلوب شيق ، يجمع بين طـلاوة العبارة ، وعمق المعاني ، وموسيقى الالفاظ ، حسبما عرف عن اسلوبـه المسجع غالبا ، بعيداً عن التكلف للزخرف اللفظي ، وان كانت قيود السجع تقف عادة بالكاتب عند حد معين في التصوير ، وخاصة في المؤرخات ، ولكن لوحظ لدى ابن الخطيب مقدرته الفائقة في شمول الوصف والاحاطة بالموضوع، مع التزامه السجع ، حتى لقد قيل عنه : انه لا يجيد الكتابة حتى يسجع !!

وتشير تسمية الكتاب الى المصادر التي اعتمد عليها ابن الخطيـب في استقاء معلوماته لمن ترجم لهم ، ونعني تلك المؤرخات والتراجم ، التي تحتل كتب الصلة بالذات من بينها المحل المرموق ، ولاسيما كتاب ((الصلة)) لابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) ، وكتاب ((صلة الصلة)) لابن الزبير الغرناطي (أبو جعفر احمد بن ابراهيم) (1) الذي يعتبر وصلا لكتاب ((الصلة)) .. ، وكلاهما قد اشتمل على تراجم لاعلام اهل الاندلس والمغرب خاصة . كمـا لعبت التجربة الشخصية للسان الدين دورا هاما بالنسبة لمن ترجم لهـم في ((الاوصاف)) ممن عاصرهم ، ومن كتب عن كثب ، وهم قدر لا بأس به بين الاخـريـن .

---

1) لقد نشر القسم الاخير منه المستشرق ليفي بروفنسال ، بالرباط عام 1938 م .

وينبغى الا يغيب عنا ما لابن الخطيب من مؤلفات اخرى فى هذا المجال، ولعل فى مقدمتها كتابه « الكتيبة الكامنة ، فيمن لقيناه بالاندلس من شعـــراء المائة الثامنة » (2) ، بيد ان هذه « الكتيبة » قد قصرها على شعراء عصره، بينما « الاوصاف » قد ضمت انماطا من الشعراء والعلماء والكتاب وغيرهم ، وان من بينهم من عاصره ومن لم يعاصره . وهناك التراجم التى تخللــت اهم مؤلفاتـــه لاسيما فى موسوعة « الاحاطة » (3)

وقبل ان نستعرض « اوصاف الناس » لا تفوتنا الاشارة الى ان بعض المشتغلين بالدراسات الاندلسية عامة ، ومن تعرضوا لآثار ابن الخطيـــب خاصـــة ، ـــ لــم يشيـــروا الـــى كتـابـــه هــذا ، بــل منهـــمـمـــن انكـــــره ، رغـــم انـــه اورده ـــ ضـــمــــن كتـــــب اخـــرى ـــ فى مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » الشان فى ايـــــراده بالريحانة شان « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » (4) ، « ومعيـــــار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار » (5) و « الاشارة الى ادب الوزارة » (6)، فلعل اخراج « الاوصاف » اليوم الى النور سيساعد ـــ ولاشك ـــ الكثيريـــن من المهتمين بهذه الدراسات ـــ على اجتلاء نواحى شتى فى التاريخ الاندلسى خاصة ، والاحاطة بكثير ممن ترجم لهم المؤلف فى شمول واستيعاب .

وبهذه المناسبة يجدر بى ان الفت نظر من قام باعادة تحقيق مؤلف ابن الخطيب « روضة التعريف بالحب الشريف » (7) حيث قدم لتحقيقه بمحاولة لحصر آثار ابن الخطيب ان ياخذ فى الاعتبار ان مؤلفات ابن الخطيب يصعب حصرها وتحديدها ، وقد سبقنا اكثر من باحث حول الاتيان عليها ، وبذلـــوا

---

2) نشره د. احسان عباس (بيروت 1963 م) .

3) سبق نشر جزاين من « الاحاطة » بالقاهرة عام 1961 م بمعرفة شركة طبع الكتب العربية بمصر ، ثم حقق المجلد الاول من « الاحاطـــــة » الاستاذ عبد الله عنان (القاهرة 1956 م) بالقاهرة .

4) قمنا بتحقيقه ، ونشرته دار الكتاب العربى بوزارة الثقافة بمصر عام 1966 م .

5) نشر بمعرفة د. العبادى (الاسكندرية 1958 م) ضمن كتابه «مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد المغرب والاندلس » ثم قمنا بنشره مع دراسة نقدية هذا العام بالرباط بتكليف من وزارة الاوقاف المغربية .

6) حققنـــاه (تحت الطبـــع)

7) حققه اولا تحقيقا علميا شافيا الاستاذ عبد القادر عطا بالقاهرة عـــام 1968 ، ثم اعاد تحقيقه محمد الكتانى (بيروت 1970 م) .

جهد المستطاع في تسليط الاضواء عليها ، تحدوهم الرغبة العلمية الرائدة ، ويزينهم التواضع العلمى ، فلم يقطعوا في بعض المؤلفات المنسوبة الى لسان الدين ، بله نسبة الخطا الى اى باحث تخيلا لعدم استناده الى دليل ، فذلك مما يتجافى وقواعد التحقيق والاستقراء الكامل ، وها هو « اوصاف النـــاس في التواريخ والصلات » لابن الخطيب السلمانى لسان الدين ــ اقدمه محققا للقراء كمؤلف ثابت ووارد بين مؤلفاته الاخـــرى .

ولقد وقفت ــ بهذه المناسبة ــ اذ قرات للاستاذ احمد امين في هـــذا الشان بما اعتقده الفصل ، والحكم الذى لا معقب لحكمه .

يقـــــول :

« ... ثم لا تكن مغرورا ، تعتقد انك على حق مطلق ، وان غيرك ان خالفك على باطل مطلق ، بل وسع صدرك ، فاجعل حقك يحتمل الخطـــا ، وباطل غيرك يحتمل الصواب ، وقلما يعرف احد الحق كل الحق ، ويقع اخوه في الباطل كل الباطل . فحقك مشوب بباطل كثير ، وباطل غيرك مشـــوب بحق كثير ، فاصغ الى رايه ، واعمل عقلك فيه ، واستخرج منه خير ما فيه ، وان اداك ذلك الى ان تعدل عن رايك الى رايه فافعل ، ولا تشمئز من ذلك ، فالحق يعلو ولا يعلى عليه » (8) .

فما بالنا والامر يتصل بمسائل علمية ، اخص خصائصها الاجتهـــاد ، واهم ما تتصف به عدم القطع في امور لافكاك من احتمالاتها ، خاصة تلـــك المؤرخات والوثائق !!

لقد ورد كتاب « أوصاف الناس في التواريخ والصلات » ضمن مخطوط ابن الخطيب الادبى الضخم « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » الذى يعد من اضخم واهم كتبه بعد « الاحاطة » ، وفي مقدمته ما يشير الى سبب تسميته ، حيث يقول : « وسميته لتنوع بساتينه المنشوقة وتعدد افانينه المعشوقـــة « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، مشتملا على عدة ابـــــواب ذات موضوعات تاريخية وادبية ، وهى في جملتها كما يلى ، مرتبة حسب ورودها بالمخطوط :

— رسائل سيد المخلوقات ، عليه وعلى آله ازكى الصلوات .
— مراجعات ، وتهنئة بفتوحـــات .
— صدقـــات ، وبيعـــات .

---

8) احمد امين « الى ولدى » ص 178 — 179 (بيروت ط 3 عام 1969)

— شكر على هدايا واردات .
— تهـان بمســرات .
— تعاز على نائبــات .
— استظهــار على مساعدات ، واستنجاز عدات .
— شفاعات ، وتقرير مســودات .
— جمهور الاغراض السلطانية .
— مخاطبة الرعايا والجهات .
— ظهائــر سلطانية .
— اخوانيـــات .
— دعايــات وفكــاهــات .
— رسائل ومقامــات .
— اوصاف اعيان فى تواريخ وصلات (موضوع البحث والتحقيق) .
— مذكــرات وموقــفــات (ملحق التحقيق) .

وعن مجمل هذه الاقسام التى احتوتها « الريحانة » يتحدث لســان الدين فى نفس « المقدمة » فيقول : « وقسمته الى حمدلة ديوان ، وتهنئــة اخوان ، وتعزية فى حرب للدهر عوان ، واغراض الوان ، صنوان وغيـــر صنوان » ، ثم يفصل لنا محتوياته فى الديباجة على النحو الاتى :

تمهيـدات مــن اوائــل المصنفــات ، وفى هــذا البــاب يختــار المؤلف نبــذا مــن مقدمــات كتبــــه ، ورسائلـــه السابقــة ، مثـــل « بستــان الــــدول ، وتخليـــص الـــذهـــب فى اختيـــار عيـــــون الكتب (لم يصل الينا هذا الكتاب بعد) وجيش التوشيح » و « الاكليـــل الزاهر » و « الاحاطة » و « كتاب الطب » و « روضة التعريـف بالحــب الشريف » و « استنزال اللطف الموجود فى اسرار الوجود » . ثم يتبع ذلك ابواب التحميدات ، والفتوحات الواقعة ، والمرافعات التابعة ، والصدقات والبيعات من الاغراض السابقات ، وكتب الشكر على الهدايا ، وكتب التهانى الى آخر هذه الابواب التى فصلناها مرتبة بالارقام .

وتجــدر الاشـــارة هنـــا الـــى ان معظم رســـائـــل الريـــحانـــة قـــد جـــاء مـــؤرخـــا بتـــواريـــخ متـــاخـــرة ، مثـــل عـــام سبـــعـــين واحد وسبعين وسبعمائة ، الامر الذى يشير بوضوح الى ان مواده ورسائله قد جمعها ابن الخطيب بغرناطة اثناء وزارته الثانية ، وقبل قدومه الى المغرب للمرة الاخيرة .

هذا ، وتوجد للريحانة عدة نسخ تضمنت معظمها « الاوصاف » اشهرها وابرزهـا :

1 ـ نسختـان بـدار الكتـب بالقـاهـرة .

الاولـى : يوجد منها الجزء الاول وبعض الجزء الاخيـر فى مجلدين وبخط مغربى ، فى اثنائهما ثقوب ونقص واضطراب . وهذان الجزآن مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونـس ، ويقعان فى 309 لوحة ، تحت رقم 19875 ز .

الثانيـة : بها نقص يسير من الخطبة ، اولها بعد الديباجـة « ... وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد افانينه المعشوقـة ، بريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ... الخ » ، وتقع هذه النسخة فى مجلديـن كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزاين المخطوطين المقيدين بـدار الكتـب المصرية ، برقم 524 ادب س ، ويقعان فى 460 ـ 650 صفحة ، ومسطرتها 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز .

2 ـ نسخـة الاسكوريـال بمدريـد .

والمسجلة تحت رقم 1835 من فهرس الغزيرى ، وهى نسخة جيـدة للغاية ، وقد كتبت بخط اندلسى باهت ، وتقع فى 281 لوحة كبيرة ، اعنى 562 صفحة ، بكل صفحة 27 سطرا ، وفى كل سطرا 12 كلمة فى المعـدل العام ، وقد ذكر فى نهاية هذه النسخة انها كتبت فى سنة 888 هـ .

وهذه النسخة عبارة عن مختارات من كتب ابن الخطيب ، ثم مجموعة كبرى من الرسائل عن السلاطين الذين وزر لهم بالاندلس والمغرب او عمل معهم : (يوسف الاول ابو الحجاج ، ومحمد الخامس الغنى بالله ، وابـو الحسن المرينـى) .

3 ـ قطعة مخطوطة بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، مكتوبة بخط مغربى ، وهى عبارة عن السفر الثالث من « الريحانة » وعدد لوحاتها 119 لوحة كبيرة (رقم 252) .

4 ـ قطعة مخطوطة اخرى فى مكتبة اوبسالة بالسويد، تتالف من154 لوحة كبيرة مزدوجة مكتوبة كذلك بخط مغربى ، وتنتهى بالسفر الاول (252 تورنبرج) .

5 ــ وفى مكتبة الجزائر الوطنية قطعة كبيرة من « الريحانة » تشتمل على 181 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، مكتوبة باكثر من خط ، معظمه قديم ، والبعض ــ وخاصة الوسط ــ قد اكمل مؤخرا ، او بتاريخ احدث بعبارة ادق ، وهذه النسخةتشتمل على النصف الثانى والاخير من «الريحانة» حيث تبدا بالفصل الذى يحمل عنوان « جمهور الاغراض السلطانيات » ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة هى اقدم جزء من المخطوط رقم (2010).

6 ــ وفى خزانة القرويين بفاس قطعتان من « ريحانة الكتاب » الاولى تضم السفرين الرابع والخامس وتقع فى 99 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، فى كل صفحة منها 27 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى ، وفى نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها ، وهو يوم الاحد قبل الزوال ، عام تسعة عشر ومائة والف (لم يذكر تاريخ اليوم أو الشهر) ، وهى برقم 40 ــ 565 ، واما الثانية فهى برقم 3011 .

7 ــ اما فى الخزانة العامة بالرباط فتوجد عدة نسخ من « الريحانة » اظهرها النسخة الكتانية ، المسجلة برقم 331 ك ، وهى عبارة عن مجلد ضخم يتالف من 609 صفحة من القطع الكبير ، وفى كل صفحة 25 سطرا ، وقد كتبت بخط مغربى واضح، وفيها زيادات حديثة، اغلب الظن انها ليست من انشاء ابن الخطيب ، ولاسيما الجزء الخاص بذكر ملوك بنى امية ، والخلفاء من بنى العباس ، وهو غفل من تاريخ كتابته . اما النسخة الاساسية للريحانة فتقع فى 599 صفحة .

وما دمنا بصدد « المكتبة الكتانية » التى ضمت الى الخزانة العامة بالرباط ، فهناك نسخ اخرى من الريحانة تنسب اليها ، فاحداها نسخة اخرى ناقصة ، قد اصابها البلى من القدم ، ورقمها 705 ك ، وتقع فى 221 لوحة بكل صفحة منها 23 سطرا مكتوبة بخط مغربى معقد ، وفى نهايتها تمام نسخها وهو 4 محرم 1079 هـ . كذلك تنسب للمكتبة الكتانية نسخة اخرى ناقصة ايضا ، تقع فى 172 لوحة بخط مغربى ، ورقمها ، 1075 ك ، وهذا بالاضافة الى نسختين كتانيتين تليان النسخ السابقة فى الاهمية ، الاولى برقم 1567 ، والاخرى برقم 3011 ، وهذه الاخيرة ناقصة من اولها ، مبتورة من آخرها .

8 ــ وتوجد بنفس هذه الخزانة ــ غير ما ذكرنا ــ سبع نسخ من « الريحانة » احداها نسخة كاملة ، عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط ، ويشتمل اولها على 222 لوحة ، مكتوبة بخط مغربى ظاهر ، والمجلد الآخر عبارة عن 215 لوحة من نفس الحجم ، وقد كتبت بنفس الخط المغربى الواضح

وهذه النسخة برقم 2195 . النسخة الثانية : وتشتمل على السفرين الرابع والخامس من « الريحانة » ، وعدد لوحاتها 145 لوحة من الحجم الصغير ورقمها 600 ، الثالثة : عبارة عن النصف الثانى من « الريحانة » ، وتحتوى على الاسفار الرابع والخامس والسادس ، وتقع فى 186 لوحة ، الرابعة : قطعة صغيرة ضمن مجموع يتالف من 28 لوحة وتشتمل على السفر الاول من الريحانة والخاص بالتحميدات ومقدمات الكتب الخاصة بابن الخطيب ، وهى متآكلة وقديمة ، وتحمل رقم 4585 . الخامسة : عبارة عن مجلد قديم ، يحتوى على 174 لوحة كبيرة ، به نقصان من أوله ومن آخره ، يبدأ بنهاية الفصل ذى العنوان (جمهور الاغراض السلطانية) ويشكل هذا المجلد بمشتملاته الجزء الثانى من النسخة الكاملة ورقمه 437 . السادسة : قطعة من الريحانة ذات حجم متوسط عدد لوحاتها 57 لوحة ، وتشتمل على السفر الثالث ، وقد كتبت بخط مغربى ، ورقمها 1207 ، والسابعة والاخيرة مجموعة من الاوراق البالية تشتمل على 40 لوحة كبيرة ، قد كتب على الصفحة الاولى منها « السفر الثالث من ريحانة الكتاب » ، وفى نهاية اللوحة الاخيرة عبارة « كمل السفر الخامس » ورقمها 6400 .

9 — وهناك نسخ اخرى تحتويها المكتبات الخاصة ولاسيما فى المغرب ولا يتسنى للباحث الاطلاع عليها فى يسر وسهولة ، كما هو الحال فى بعض المكتبات التى اتينا على ذكر ما ورد بها من نسخ « الريحانة » وقد رأيت سفراً منها مصادفة فى مكتبة صديقى الاستاذ عبد الكبير الفهرى الفاسى بالرباط ، وتصفحتها فوجدت الجزء الخاص بالرسائل السلطانيات ، وخاصة منها ما يمثل العلاقات السياسية التى كانت سائدة بين الحفصيين وبين ملوك بنى نصر ، فى منتصف القرن الثامن الهجرى .

وانما افضت الحديث فى استعراض ما يتعلق بالنسخ التى تقصيتها من الريحانة هنا وهناك لامرين :

1 — ان مدار البحث حول كتاب ابن الخطيب « اوصاف الناس فى التواريخ والصلات » وهو جزء من « الريحانة » ، ويمثل السفر الاخير منها ، حيث يختتم المؤلف هذا المؤلف الضخم ، بعد الاوصاف — بكتب الزواجر والعظات .

2 — اننى استخرت المولى — جلت قدرته — وعكفت منذ وقت ليس بالوجيز على تحقيق هذا المؤلف الادبى التاريخى الكبير « الريحانة » ، وقطعت فى ذلك شوطا ليس باليسير ، حتى وفقنى الله الى تحقيق الاجزاء التالية منه ، وهى :

1 ـ الرسائل السلطانية (وتمثل القدر الاعظم من الكتاب)

2 ـ معيار الاختيار (تحقيق جديد به زيادات ، مع دراسة نقدية)

3 ـ أوصاف الناس (موضوع هذا الكتـــاب)

4 ـ الاشارة آداب الوزارة (تحت الطبع)

5 ـ مقامة السياسة (تحت الطبـــع)

6 ـ كتب الزواجر والعظات (نشرت جزءا منها بالدوريات العلميـة بالمغرب) وهى ملحق هذا التحقيق والدراسة .

وتتمة للفائدة فقد رأيت الحاقها بـ ((الاوصاف)) كاملة ، خاصة وأن ابن الخطيب جرى فى موضوعها ومنهجها على نفس المضمار للاوصاف وقد بلغت عشرين لوحة من نهاية مخطوط ((الريحانة)) ، وهى عبارة عن أربع رسائل بهذا المضمون ، أولاها كتبها لسان الدين ابن الخطيب الى معاصره الخطيب ابن مرزوق ، وهى الرسالة الوحيدة من بين الاخريات التى نص فى ديباجتها على اسم صاحبها ، أما الثلاث الاخر فقد تعمد اغفال ذكر أصحابها، مكتفيا بقوله فى بعضها ((الى بعض الفضلاء)) ، وفى البعض الآخر لم يذكـر شيئا من هذا أو ذاك . وقد سطر المؤلف رسائله هذه عامة بما طبع عليه فى هذا المجال من جنوح الى المحسنات البديعية ، قد تكلف أثناءها هذه القيود اللفظية ، مضمنا اياها الكثير من أبيات الشعر ، منها ما ينسب اليه ومنها ما جاء به اقتباسا فى مناسبته . والغاية التى قصد اليها فى الجملة هى الترغيب والترهيب والتزهيد فى متاع الدنيا ، مستشهدا فى كثير من أفكارها بأحداث الدهر ونكباته ، جاعلا من تجربته الشخصية مجالا للتنظير فى هذه الحياة ، واضعا هذه التجربة فى متناول الاستيعاب ، عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وسنلحظ من خلال عرض هذه الرسائل مقدار الصلـة التى كانت تربط ابن الخطيب بمعاصريه الذين حرر اليهم هذه الكتب الفريدة ، فهم بين وزراء وقضاة وكتاب ، قد جمعتهم الاحداث التى عاشوها وعايشوها، بل لقد مر كل منهم بما يشبه فى الجملة نفس الظروف التى مر بها الآخر .

وفيما يتصل بأغراض ((كتب الزواجر والعظات)) هذه نرى أن تلـك الاغراض قد سبق بها ابن الخطيب من أدباء وشعراء المشرق ، وخاصة أبان العصر العباسى كما سنذكر ، بل ان التذكير بالآخرة وحث الهمم للتزود لها ، والأشعار بالوعد والوعيد فى يوم الحساب ، كل هذا وأمثاله قد طرقه أدباء العرب الجاهليون ، ومنهم ـ على سبيل المثال ـ فى الميدان الخطابـى

« قس بن ساعدة الايادى » والمعروف بخطبته الشهيرة التى منها « ايها الناس، اسمعوا ، وعوا واذا وعيتم فانتفعوا ، من فات مات ، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت» .. الى آخر ماجاء بها من هذا المضمون، حتىكان العصر العباسى بطغيان مظاهر الحضارة والمدنية ، وانغماس السواد من الشعوب الاسلامية فى ملذات الحياة ، مما دفع بطبقة خاصة من الادباء والشعراء — ولاسيما الفلاسفة منهم — الى الجنوح نحو ادب الحكمة والموعظة وتذكير الناس بيوم الحساب ، وقد اشتهر من بين هؤلاء « ابو العتاهية » اسماعيل بن القاسم (103 — 211 هـ) فى عصر الرشيد ، ثم الامين والمامون ، فقد عد ما قاله فى الزهد والامثال من اجود ما قال ، ويمتاز عن غيره — فى هذااللون — بقلة تكلفه ، وسهولة الفاظه ، حتى كادت تخرج الى حد الابتذال ، ولما سئل فى ذلك كانت حجته انه يقصدالى العظة والزهد ، فينبغى ان يكون شعره مفهوما لدى الناس على السواء ، وقد اقتفى اثره فى ذلك بعض الشعراء فى المشرق والمغرب ، فمن قوله يعظ الرشيد :

لا تامن الموت فى طرف ولا نفس ... واعلم بان سهام الموت قاصدة

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... ولو تسترت بالابواب والحرس

لكل مدرع منا ومتــرس ... ان السفينة لا تجرى على اليبس

وعليه ، فيمكن اعتبار لسان الدين ابن الخطيب من الادباء الذين تاسوا فى هذا اللون الادبى بابى العتاهية واضرابه ، وكان مما افاض به فى ذلك الرسائل الادبية التى بعث بها الى الخواص من اصدقائه المعاصرين ، والتى نحن بصدد البحث فيها الآن ، مضافا الى هذا اشعاره التى نظمها — فى نفس الغرض — فى المناسبات الخاصة ، ومنها قصيدته قبيل مصرعه ، حينما توقع مصيره المحزن :

بعدنا وان جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت

وانفاسنا سكنت دفعة ... كهجر الصلاة تلاه القنوت

وكنا عظاما فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت

وكنا شموس سماء العلا ... غربن فناحت عليها البيوت

فكم خذلت ذا الحسام الظبا ... وذا البخت كم جدلته البخوت

وكم سيق للقبر فى خرقة ... فتى ملئت من كساه التخوت

فقل للعدا ذهب ابن الخطيب فقل يفرح اليوم من لا يموت
فمن كان يفرح منهم له فقل يفرح اليوم من لا يموت (1)

ومن المقرر ان الانسان يتاثر بالنصيحة كما يتاثر بالبيئة المحيطة به ، واحيانا تجد النصيحة الاذن والقلب الواعيين فتعمل عملها ، ولهذا نجد القرآن الكريم والسنة النبوية تنصحان المؤمنين ، فامر كلاهما بالعدالة والصدق والعفة وما الى ذلك ..

« ولامر ما اتفقت الامم وحكماءها على العناية بالنصائح ، فالحكيم قس بن ساعدة له نصيحته المشهورة ولقمان الحكيم نصح ابنه كما هو مذكور فى القرآن ، وملوك الفرس نصحوا الناس بنصائحهم المسماة (جويدان خرد) ولست اذهب بعيدا ، ففى القصص العربى ان عبد الله بن الزبير ومصعب ابن الزبير وابا جعفر المنصور تذكروا ابياتا من الشعر ، فتشجعوا ورموا بانفسهم فى حومة القتال بعد انشائها .. (2) .

ولا نغفل الاشارة — بهذه المناسبة — الى ان كتب « الزواجر والعظات » قد كانت خاتمة مؤلف لسان الدين الادبى التاريخى « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » وذلك فى كافة نسخها المتكاملة ، وحيث يشير المؤلف بنفسه الى ذلك بقوله :

« تم الكتاب بحمد الله المعين ، وبتمامه كمل جميع الديوان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ، صلاة تحل العقد، وتفرج الكرب ، آمين رب العالمين ، وسلم كثيرا الى يوم الدين (154 : ا) »

ونعود — بعد هذا الاستطراد الوجيز — لنذكر ان الاعتماد فى تحقيق ودراسة « اوصاف الناس » موضوع هذا الكتاب وكذا « الزواجر والعظات » قد وقع على نسخة الاسكوريال للريحانة بمدريد (1835 الغزيرى) وقد وقعت لوحات « الاوصاف » من بين الكتاب فى 65 لوحد من القطع الكبير ، ومسطرتها 15 سطرا بكل صفحة من لوحاتها المزدوجة .

---

(1) ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 342 والمقرى فى «ازهار الرياض» ج 1 ص 231 .

(2) احمد امين فى كتابه « الى ولدى » ص 163 — 154 (بيروت ط 3 عام 1969) .

وبعد ، فالى الباحثين والدارسين من المشتغلين خاصة بتـــراثنـــــا الاندلسى المغربى اقدم كتاب ((أوصاف الناس فى التواريخ والصلات)) آملا ان اكون بهذا التحقيق قد اسهمت ــ بالقدر الذى توفرت عليه فى هذا المجال ــ بلبنة اخرى فى هذا التراث التليد ذى الطرافة التاريخية المنشودة خلال تلك الفترة من فردوسنا المفقود .

وما توفيقى الا بالله ،

دكتـــور

محمد كمال شبانـــة

استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
بجامعـــات المغرب

القاهرة /٢-٣-٢٠٠٢

المؤلف

لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد ، السلماني الاصل ، اللوشي الولادة ، الغرناطي التربية والمرتع ، المغربي النزوح والوفاة ·

ولد ــ رحمه الله ــ بمدينة لوشة LOJA في 25 رجب 713 هـ (16 نوفبمر 1313 م) ، وتربى في احضان اسرته التي عرفت بالاصالة علما وجاها ، ونشا في العاصمة غرناطة ، حيث تلقى بها دراسته على ايدي جهابذة العلماء والادباء يومئذ ، فقد كانت العاصمة النصرية حينئذ اعظم مركز للدراسات العلمية والادبية في ذلك الجزء الغربي من العالم الاسلامي .

وكان من الطبيعي ان يتاثر لسان الدين سياسيا بحكم منصب والده ، الذي شغل وتقلد منصب الوزارة في بلاط ملوك بني نصر ، حيث وزر للسلطان يوسف بن اسماعيل ابن الاحمر (733 ــ 755 هـ / 1333 ــ 1354 م) فلما توفي الوالد دعي ابن الخطيب الابن ليشغل منصب ابيه وهو في ريعان الشباب (28 عاما) كامين سر اولا لاستاذه رئيس ديوان الانشاء ابو الحسن علي ابن الجياب ، ثم تقلد ديوان الانشاء بعد وفاة شاغله ، واظهر من البراعة والكفاءة في هذه المناصب ما جعله اهلا لثقة السلطان المذكور ، ويتحدث ابن الخطيب عن تلك الفترة في « الاحاطة » فيقول « فقلدني السلطان سره ولما يستكمل الشباب ، ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة الى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمى الى بخاتمه وسيفه ، وائتمنني على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه (1) » وبهذا يصح أن نطلق على هذه الفترة من حياة ابن الخطيب السياسية خاصة الفترة الذهبية (741 ــ 755 هـ / 1340 ــ 1354 م) وكانت في فجر حياته ، وعنفوان شبابه .

---

1) المقري في « نفح الطيب » ج 3 ص 44 .

ولما توفى سلطانه يوسف الاول يوم عيد الفطر 755 هـ (1354 م) وخلفه فى الملك ولده الغنى بالله محمد الخامس ، ابقى هذا على وزير والده ابن الخطيب فى بلاطه ، واسفره بدوره الى سلطان المغرب يومئذ ابى عنان المرينى عام 755 هـ ، اى عقب توليه مقاليد امور المملكة ، فحقق لسان الدين نجاحا ملحوظا فى تلك السفارة ، ولعل ابرز مظاهر هذا ما كان من توثيق عرى الصلات بين غرناطة والمغرب ، وتوالى العون الحربى من فاس، لمقاومة اطماع قشتالة واراجون النصرانيتين للاستيلاء على آخر معاقل المسلمين يومئذ « غرناطة » .

وهكذا احتل ابن الخطيب مكانة مرموقة من بلاط الغنى بالله ، حيث جمع فى عهده بين وزارة القلم ووزارة السيف ، فلقب بـ « ذى الوزارتين » ، ويمكن اعتبار هذه الفترة امتدادا للفترة الذهبية من حياته ، فقد نوه بها صاحبنا فى « الاحاطة » ايضا ، فقال . « ولما هلك السلطان (يعنى يوسف الاول) ضاعف ولده حظوتى ، واعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى، الى ان كانت عليه الكاينة ، فاقتدى فى اخوه المتغلب على الامر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله اهل الشحناء من اعوان ثورته على القبض على ، فكان ذلك .. وتقبض على ، ونكث ما ابرم من امان (2) » .

ويرمى لسان الدين بـ « الكاينة » المذكورة الى تلك الثورة التى تزعمها اخو السلطان الغنى بالله والمسى الامير اسماعيل ، فكان من نتيجة ذلك نفى ابن الخطيب مع سلطانه المخلوع الى المغرب ، وبقى به قرابة ثلاث سنوات (760 — 763 هـ / 1358 — 1361 م) بمدينة سلا ، حيث انقطع للبحث والتاليف، بعد ان وفر له بنو مرين يومئذ وسيلة المقام امنا ورغد عيش، فكانت هذه الفترة من حياة مؤرخنا فترة الخصوبة الثقافية ، ولعل من مظاهرها مؤلفاته وابحاثه طيلة هذه المدة .

وعاد السلطان الغنى بالله مرة اخرى الى الاندلس اثر انقلاب ضد اخيه « المتغلب على الامر » ، وتربع على العرش من جديد بدعوة من الثوار الجدد ، ونادى وزيره ورفيق النفى ابن الخطيب ، فوصل هذا الى « غرناطة » ليحتل سابق حظوته ، بيد ان تلك الحظوة لم تدم طويلا ، فقد شعر لسان الدين بما كان يحاك حوله من دسائس ، وينسج من سعايات للايقاع بينه وبين الغنى بالله ، الامر الذى اضطر معه وزيرنا الى ان يحزم امره على مغادرة الاندلس ، ثم اللجوء الى المغرب نهائيا ، وكان منه ذلك على صورة فتحت الباب على مصراعيه للمتقولين والمناهضين له ، فقد استاذن ابن الخطيب

---

2) المصدر السابق .

السلطان فى التفتيش على الشواطىء الاندلسية ، مما اوغر صدر الغنى بالله‌عليه ، اذ تبين خديعته ..

وحل ابن الخطيب لاجئا سياسيا على المغرب ، وكان على عرشه حينئذ السلطان ابو سالم المرينى ، حيث اكرم وفادته ، واقطعه الاراضى ، ورتب له الرواتب ، ولكن تقلبات الاحداث بالمغرب منذ ذلك الحين ، واسهام « غرناطة » فى جوانب من هذه التقلبات ، بغية اقصاء بعض الامراء المرينيين المناهضين لسياسة بنى الاحمر ، ثم ما كان من تتبع بلاط بنى نصر لخطوات لسان الدين ومطالبتهم براسه ...

كل ذلك كان كفيلا فى النهاية — عندما واتت الظروف لصالح السلطان الغنى بالله فى فاس — بان يقبض على ابن الخطيب وتكون عاقبته على النحو المعروف ، من مساءلة حول ما اتهم به من زندقة وما الصق به من الحاد ، فكان ان افتى الفقهاء بموته شرعا ، وكان هذا فى اواخر عام 776 هـ ، حيث خنق بمحبسه ، ثم احرق ، ودفن — رحمه الله — قرب باب المحروق (لانسبة بين اسم هذا الباب ومصرع ابن الخطيب) فى فاس . وقد امكن للمقرى صاحب « نفح الطيب » الاستدلال على القبر بعد فترة من الحادث المؤسف .

هذا ، ويعد ابن الخطيب موسوعة علمية نادرة ، ولاسيما فى اخريات العصر العربى بالاندلس ، ومؤرخا يكاد يكون فريدا ، وخاصة فى فترة عز فيها التأريخ بفعل الاضطرابات التى كانت تجتازها الاندلس بالذات يومئذ . وناهيك بمؤلفاته العديدة — المتنوعة (3) والتى قاربت الستين ، بيد ان ما قدر له ان يبقى منها يقل عن هذا ، وقد نشر بعض منه تراثا انسانيا افاد منه الباحثون شرقا وغربا ، فكان لسان الدين بذلك حقيقا بتنويه المستشرقين والمؤرخين القدامى منهم والمحدثين .

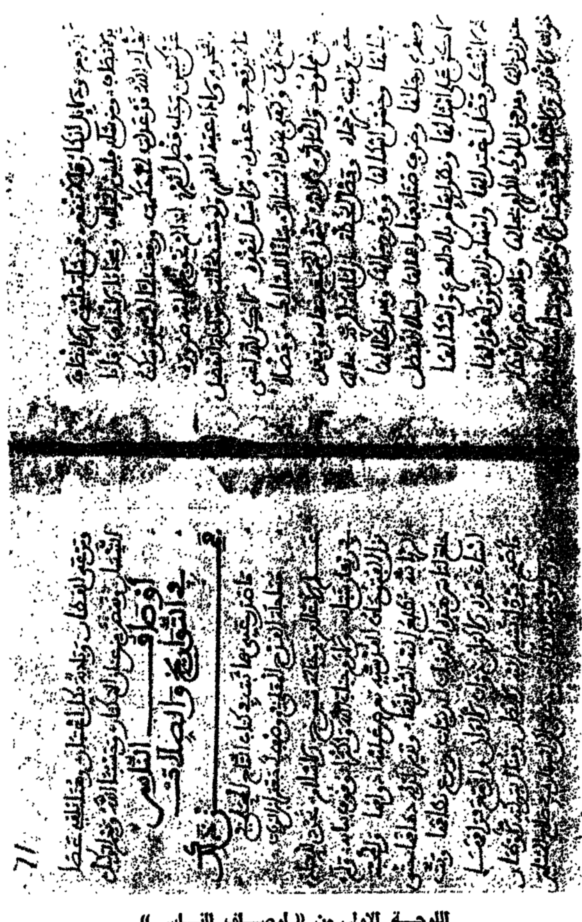
---

1) راجع ذكر كتبه فى « الاحاطة » .

الباب الأول

أوصاف الناس في التواريخ والصلات

القسم الأول



اللوحة الاولى من « أوصاف الناس »
مخطوط الاسكوريال (الغزيرى 1835)

اوصـــاف الناس فى التواريخ والصــــلات

(71 . ب) فمن ذلك (1) مــا صدر عنى ممــا ثبت فى كتاب :

التــاج المحلى ، فى مساجلة القدح المعلــى (2)

1 ــ جعفــر ابــن الزيــات

علم الاعلام ، وخاتمة شيوخ الاسلام . تجرد للعبادة فى ريعان شبابه ، ولازم جناب الله وأكثر الوقوف ببابه . ولم تزل الفتوحات القدسية تعرض عليه أذواقها ، والمحبة الربانية تصلح لديه أشواقها ، وتدير لديه دهاقها ، حتى خلع لباس هذه البدنيات ونزع نطاقها ، وبث فى أسباب هذه الاكوان ذوات الالوان ، وأزمع فراقها . فأصبح فردا تشير اليه الابصار ، وتنال ببركته الاوطار ، وتتحدى لرؤيته القطار .

---

1) اسم الاشارة يعود الى ما اشتمل عليه مؤلفه « الريحانة »

2) هذا الكتاب لابن الخطيب عبارة عن مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ تأسست على يد زعيم بنى نصر (محمد الاول ابن الاحمر) حتى عصر المؤلف ، بالاضافة الى تراجم لاعيانها المعاصرين له ، كما يترجم فيه ابن الخطيب لنفسه ولوالده . ويوجد جزء من « التاج المحلى » فى المخطوط رقم 554 (فهرست الغزيرى) بالاسكوريال ، ويمثل هذا الجزء المخطوط 53 لوحة من 71 الى 132 . وفى الخزانة العامة بالرِباط توجد طائفة من تراجم « التاج المحلى » بالمخطوط رقم 1102 ضمن آثار أخَرى له يضمها المجموع الذى عنوانه « مجموع مراسلات وتراجــم ابن الخطيــب » .
أما « القدح المعلى » فهو لابن سعيد الاندلسى (ابن الحسن على بن موسى) المتوفى عام 73 هـ وهو يتناول بالترجمة طائفة لا بأس بها من علماء وادباء الاندلس الذين قضى جلهم خلال النصف الاول من القرن السابع الهجرى ، وقد نشر « القدح المعلى » بعناية المحقق الاستاذ ابراهيم الابيارى بالقاهرة عــام 1959 م .

ودعى الى السفارة فى صلاح المسلمين (72 . أ) فأجاب ، وسعى فى اخماد الفتنة فانجلى ليلها وانجاب ، وأعمل فى مرضاة الله ــ الاقتاب، وخــاص العبــاب .

وكان ببليش (3) ببلده منتجع رائد ، ومعدن فرائد . وفجر الله ينابيع البلاغة على لسانه ، وجعل زمام الفصاحة طوع لسانه . فدون بالنظم فى شتى الفنون ، وجلى المعارف مفوفة المطارف للعيون . فكان يقعد بمسجدها الجامع فيدرس ويحلق ، ويهذب ويخلق . فيأتى من الاعراب بالاغراب . ويتكلم فى التفسير بغيز اليسير ، ويلمح من التعليل لا بالقليل . ويشير الى فريقه برموز طريفه .

ولما نادى به منادى فراقه ، وغيب الدهر نور اشراقه ــ بكت عليه الربوع دما ، وأصبح وجودها عدما .

وقد آثبت من آدابه وشعره « فى التاج المحلى » (4) ما يدل بسعه صدره ، ويدل على قدره .

---

(3) توجد ثلاث مسميات لثلاث مدن متوسطة بهذا الاسم ، أولاها ــ ولعلها التى يقصدها المؤلف ــ « بليش مالقة » الاسبانيه Velez Malaga وموقعها غرب مالقة على مسافة 34 كم ، وقد أوردها ابن الخطيب فى كتابه « معيار الاختيار » واصفا لها بعد وصفه « مالقة » والمدينة الثانية هى « بليش الشقراء » وتدعى فى الاسبانية Velez Robio وموقعها قرب مدينة لورقة ، وقد وصفها المؤلف أيضا فى « المعيــار » .
اما الثالثة فتسمى « بليش البيضاء » وتعرف فى الاسبانية Velez Blanco وهى قرب الثانية وقد تكون أحدث الثلاثة .

(4) هكذا سيكون مسلك ابن الخطيب لمن يترجم لهم جميعا بدءا من « جعفر ابن الزيات » حتى نهاية الكتاب فى الاحالة على كتابه « التاج المحلى » فيما يتصل بآثار المترجم لهم من نثر او نظم او خطب جادت بها قرائحهم ، ولهذا سنحاول ــ قدر الاستطاعة ــ ان نورد شيئا من هذه الآثار اقتباسا من « التــاج » أو غيره لمن عنى بأمثال هؤلاء مترجما لهــم .

ومن ذلـك فى وصـف :

2 ـ أبـى الحسـن القيجـاطى

(72 . ب) أخطب من صعد المنابر وارتقاها ، وأفصح من هذب العبارة وألقاها ، واستجادها وانتقاها . نجم ببلدية الشرق ، وتألق فى افقها تألق البرق . ولم تزل رتبته فى ارتفاع حتى استأثرت الحضرة (5) به على ما سواها ، فاحرز فيها الغاية وحواها ، ونشر معارف المطارف وما طواها . فنفق للادب سوقا ، بسقت فروعها بسوقا ، وقلد بحـر العصر من عقوده درا منسوقـا .

ثم تقدم خطيبا بمسجدها الجامع ، فقرط بألفاظه الرائقة عاطلة المسامع ، وأسال بمواعظه البالغة درر المدامع . وهو منجد الحلبة ومخرجها ، وموقد الاذهان وسرجها .

خبا ــ بوفاته للعلم ــ كوكبه الثاقب ، ووويت بمواراته المفاخـر والمناقب . وله نظم تعطرت المجالس بجرياله ، وتعلقت المحاسـن بأذياله . ونثر حسدت عقود الغانيات درره ، وغارت النجوم الزهـر لمـا اجتلت غـرره .

---

5) الحضـرة . العاصمة ، وهى يومئذ غرناطة النصرية ، نسبة الى بنى نصـر المعروفين ببنى الاحمر ، حكموا مملكة غرناطة ما يربو على مائتين وخمسين عاما (635 ــ 897 هـ / 1238 ــ 1492 م) ومؤسسها محمد ابن يوسـف بن الاحمر ، وآخر ملوكها أبو عبد الله محمد على بن سعد بن محمد بن يوسف النصـرى .

انظر : تحقيقنا «كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان» ، لابن الخطيب ص : 16 ــ 24 (القاهرة 1966 م) .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

3 ــ أبـــى اسحاق بن أبى العـــاص

حابق حلبة العلم والدين ، والمستولى على قصب السبق فى تلـــك الميادين . أتت طريف (6) منه بطرفة رائقة ، وأغرب منه هذا المغرب بروض تحسد الرياض حدائقه . ورد على هالتها أبرارا . وانتظم ــ لاول حلوله ــ فى طبقة الكتاب والعود قشيب ، وفود الوقت لم يرعه للمقت

---

6) طريف ــ Tarifa مدينة اندلسية تقع على لسان يمتد فى البحـــر الابيض المتوسط من الناحية الجنوبية الغربيـــة لاسبانيا فى مواجهة مدينة الجزيـــرة الخضـــراء Algeciras التى تقع فى الجهة الشرقية ، وبين المدينتين هضاب وسهول تفصلها بعض الاودية الصغرى . وتعتبر طريف اول بقعة أندلسية حل بها العرب منذ ان تطلعت انظارهم الى فتح شبه الجزيرة الايبيرية ، فقد حدث خلال عام 91 هـ (710 م) ان جازت البحر من سبتة حملة اسلامية صغيـــرة قوامها 400 محارب كبعثة كشف واختبار ارسلها من المغرب موسى بن نصير بقيادة أحد مواليه من البربر ، واسمه طريف بن مالك ، فنزل هذا القائد الرسول برجاله فى المنطقة المقابلة لمدينة سبتة المغربية من جهة الغرب ومنذ ذلـــك الحين والمنطقة تعرف باسم قائد هذه البعثة العسكرية .
وطريف كمدينة أندلسية لها تاريخها التليد من حيث موقعها البحرى الهام ، ذلك الذى أهلها لان تكون ابان العصر الاسلامى محطا « استراتيجيا » هاما لنزول المغاربة المحاربين ، شأنها فى هذا شأن جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وقد لبثت هكذا مدينة حربية حتى سقطت فى أيدى الاسبان فى المعركة الشهيـــرة « معركة طريف الكبرى » La Batalla del Salado التى هزم فيها الاندلسيون والمغاربة (جمادى الاخرة 741 هـ = 30 أكتوبر 1340 م) .
من آثار طريف الاندلسية بقايا ضئيلة متفرقة من السور القديم ، كالجزء الذى يمتد الى اليسار من باب شريش وبه عدة كوى صغيرة ، وجزء آخر موقعـــه تجاه الحصن العربى ، وجزء ثالث من السور يلاصق منتزه المدينة . أما الحصن فيغلب على الظن انه من بقايا القصبة العربية لعقوده ذات الطـــراز العربـــى ، وهو يشرف على البحر من الناحية الخلفية للمدينة .
راجع . السلاوى فى « الاستقصا » ج 3 . 136 وما بعدها ، ورحلة الغزال الفاسى ، ص 16 ، والمقرى فى « النفح » ج 3 ص 96 وما بعدها .

مشيب . والربع آهل والوارد فى الرفد ناهل . متميز بخصائصه الحسنى ، وتأهل للمحل الاسنى . وقعد للجملة بعد فقد صدرها ، وأفول بدرها ، وحلول شمسها فى رمسهـــا .

وخلف أستاذها ابن الزبير خير خلف ، وأصبحت لشأنه من أنشد فيه « انما الدنيا أبو دلف » (7) وصعد المنبر فجلت الخطوب خطبه ، وهز منه الجزع فتساقطت رطبه . فأبكى العيون الجامدة ، واثار العزائم الخامدة . وأخذ بقلوب الدهماء فاستمالها ، وبلغ منهم الغاية التى أراد ونالها . وحمل نفسه بآخرة الى الجود ، والاتيان بالحاضر الموجود . (73 : ب) فكان للفقراء عالا ، وللمعتفين (8) قالا ، وللعصر وأهله زينا وجمـــــالا .

وقضى لسبيله ــ رحمه الله ــ فقيدا أسال الغروب ، وهـــاج ــ للاشجان ــ الحــــروب .

وكان له أدب أنيق الشارة ، حسن الاشـــارة .

---

7) هذه العبارة شطر من قصيدة للشاعر العكوك بن جبلة ، حيث يقول :

انمـــــا الدنيـــا أبـــو دلـــف بـــين مغـــزاه ومختصـــــره

فـــاذا ولـــى أبـــو دلـــف ولــت الدنيـــا علـــى أثـــره

وأبو دلف هذا هو القاسم بن عيسى بن ادريس العجلى ، امير الكرخ ، وسيد قومه واحد الاجواد الشعراء ، كان من رجال الرشيد وابنه المأمون . وقد عقد له الكاتب ابن طيفور جزءا خاصا فى كتابه (بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية) عند حديثه عن المأمون ، توفى « أبو دلف » هذا عام 226 هـ .

8) المعتفون . هم من يتعففون عن سؤال الناس رغم الحاجة ، وقد اشار اليهم القرآن الكريم فى قوله تعالى « يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف » .

ومن ذلـك فى وصـف :

4 ـ أبـى القاسم بـن جـزى (9)

مجتهد عاكف ، وروض فنون جاده من العلم كل واكف . أقام رسم مجده ، ورفع عمد بيته ، فى قمة العلم ونجده ، فأصبح صدر بلده ، وأنجب خلفين كريمين من ولده . وفرغ للعلم من جميع أعماله ، وتفيأ رياض دواوينه عن يمينه وشماله ، واقتصر على طلب كماله ، مع وفور ضياعه ونمو ماله . فدون الكثير وصنف ، وقرط المسامع وشنف . وترقى الى الخطابة ـ وهى ما هـى من جلال الرتبة ، وسمو الهضبة ـ ففـرع سنامها ، ورفع أعلامها ، وغض شبيبته ناضر ، وزمن فتائه حاضر . فوقع عليه الاتفاق ، وانعقد ـ على فضله ـ الاجماع والاحقاق .

ولم يزل يسلك طريق المجتهدين ، فدون فى الفقـه والدواوين . وسفر فى علم اللسان عن وجه الاحسان . ورحل فى علم التفسير الى كل طية ، وركض فى أغراضه كل مطية ، حتى أنشأ الزمخشرى (10) وابن عطيـة (11) .

وله ـ من الادب ـ حظ وافر ، ومذهب عن ـ الحسن ـ سافر .

---

9) احد شيوخ المؤلف لسان الدين ابن الخطيب ، وممن تتلمذ عليهم فى ميدان الخطابة خاصة . وقد ترجم له الامير اسماعيل ابن الاحمر ، فى « نثير فرائد الجمان » والمترى فى « النفح » وغيرهمـا .
انظر « يوسف الاول ابن الاحمر » تاليف المحقق ، ص 60 (القاهرة 1969 م) .

10) هوالشيخ ابو القاسم محمود المعروفبالزمخشرى، نسبة الى احدىقرىخوارزم والمولود بها عام 1075 . وهو امام عصره فى اللغة والنحو والبيان والتفسير ، كان معتزلى الاعتقاد ، من تاليفه « المفضل فى النحو » و « الفائق فى غريـب الحديث » و « أساس البلاغة » واخير « الكشاف عن حقائق التنزيل » وهـو تفسيره الذى اشتهر فيه بآرائه الاعتزالية خاصة .

11) سيفرد له المؤلف فيما بعد ترجمة مستقلة .

ومـــن ذلك فى وصـــف :

5 ــ ابى البركات البلفيقى (1)

واحد الفئة ، وصدر صدور هذه المائة . ورجل الحقيقة وابن

---

1) هو قاضى الجماعة الشيخ محمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن خلف السلمى ابو البركات بن الحاج البلفيقى ، والنسبة الى « بلفيق » حصن بأحواز مدينـــة المرية جنوب شرق الاندلس . يتصل نسبه بحارثة بن العباس بن مرداس ، نشأ بالمرية منزويا ، متعبدا ، عبر البحر الابيض المتوسط الى بجاية ، حيث التقى بالعلماء من معاصريه ، فأخذ عنهم ، لا سيما استاذ العصر ابا على منصـــور بن احمد بن عبد الحق المزالى ، ثم تحول الى مراكش ونواحيها ، ثم أقام فترة بسبتة ، واخيرا عاد الى الاندلس ، فاشتغل بالتدريس والقضاء والخطابة بادىء الامر بمدينة مالقة اوائل عام 735 هـ (سبتمبر 1334 ــ 20 اغسطس 1335 م) ، ثم تولى القضاء فى بلاد اخرى ، حتى نقل الى غرناطة قاضيـــا للجماعة فى 23 شعبان عام 747 هـ (6 فبراير 1347 م) ثم صرف عن القضاء بغرناطة حيث ارتحل الى المرية ، وتقلد نفس المهنة أوائل رجب 748 هـ (اكتوبر 1347 م) ثم اعيد الى العاصمة مرة اخرى فى أواخر رجب 756 هـ (اغسطس 1356 م) ، وخلال هذه الفترة كثيرا ما انتدبه السلطان ابو الحجاج يوسف الاول سفيرا الى معاصريه من الملوك المسلمين ، ولابن الحاج مؤلفات عديدة ، ولكن معظمها غير تام أو غير منقح فى مبيضات ، كما روى عـــن نفسه ، حيث جاء فى « الاحاطة » قوله معللا ذلك : « وقد ذهب شرخ الشباب ونشاطه ، وتقطعت أوصاله ووصل رباطه ، وأصبحت النفس تنظر فى هذا كله بعين الاهمال والاغفال ، وقلة المبالاة التى لا يصل بها أحد الى منازل الرجال . وهذه الاعمال لا ينشط اليها الا المحركات التى هى مقصودة عندى » وهكـــذا يمضى فى سرد الدوافع المفقودة عنده لابراز مؤلفاته الى عالم الوجود ، ولعل الاحداث التى عاصرها وما لابسه منها قد املت عليه هذا الاتجاه نحو السلبية . ولابن الحاج القصائد المطولة ، نظمها فى اكثر من غرض ، وخاصة فى الوعظ والارشاد ، كما أن له باعا فى النثر . وقد استقر مقام هذا القاضى مؤخرا بمدينة المرية قاضيا بها وخطيبا ، حتى وافته منيته خلال شهر رمضان من عام 773 هـ (ديسمبر 1372 ــ يناير 1373 م) حيث دفن بنفس المدينة .

راجع : « الاحاطة » ج 2 ص 102 ــ 106 ، و « تاريخ قضاة الاندلس » للنباهى ص 165 ثم « يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة » للدكتور شبانـــة ص 79 ــ 82 نشر . لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م .

رجالها ، وعلم هذه الطريقة وفارس مجالها ، وتحفة الدهر التى يقل لهـا الكفاء ، وبقية السلف التى يقال عندها : « على آثار من ذهب العفاء » .

ما شئت من شرف زاحم الثريا بمناكبه ، ومجد خفقت بنود العلم فوق مواكبه . وحسب توارثه الكابر عن الكابر ، وأصالة تأملت أرواحها بين بطولة المحاريب وظهور المنابر ونشأة سحبت من العفاف ذيلا ، وغضت الطرف حتى عن الطيف ليلا . ومعرفة لا يساجل لجها ، ولا يراجع صبحها ونغمة فى تلاوة القرآن ، يخر لها الناس على الاذقان .

ولما أمعن فى المعارف كل الامعان ، و « منهومان ــ كما قال عليه السلام ــ لا يشبعان » تشوف الى الرحلة عن بلاده ، وزهد فى طريفه وتلاده . فأخذ الحديث عن أهله ، وذهب من العلم فى حزنه وسهله . وبلغ الغاية حتى رحل الى بجاية (2) وبها علم الدين وناصره (3) ، (74 . ب) وروض العلم الذى أخصب جانبه وخاصره ، ففاز بلقائه ، ونهل من سقائه ، وصرف فهمه الثاقب الى القائه . فحصل واستفـاد ، واقتنى من كنوز رحلته ما لا يخاف عليه النفاد .

قدم على قدارة مجده ، قدوم النسيم الحجازى من نجده . فاشارت اليه الاحداق واشرأبت الى طلوعه الاعناق . ولم تزل بدائعه تتقلدها الصدور ، ومحاسنه تغار منها الشموس والبدور ، والسعادة توافيه ، والخطط الشرعية تتنافس فيه ، وخطبته الان خطابة قطره وهو كفؤها وابن

---

2) بجاية ــ بكسر الباء وتخفيف الجيم ، مدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط بين افريقية والمغرب اختطها الناصر بن عنان بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين عام 457 هـ (منتصف القرن الحادى عشر الميلادى) وتسمى الناصرية ، نسبة الى مؤسسها . كانت ميناء هاما للقوافل البحربية والتجارية وهى اليوم احدى المدن الجزائرية الساحلية المعروفـــــة .
راجع : « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » للوزير لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق د. شبانة ص 79 هامش 2 نشر دار الكاتب العربى بالقاهرة 1969 م .

3) يقصد به استاذ العصر ابا على منصور المشدالى ، والمشار اليه ق التعليقات السـابقـــة .

أكفائها ، ومحى رسومها بعد اعفائها ، فتلقى رايتها بيمينه ، واستحقها بسلفــه وعلمه ودينـــه .

ومن ذلــك فى وصـــف :

6 ــ أبى جعفر ابن خميـــس

قريـــع صلاح وعبـــادة ، ورضيع شــدى دين وسجـــادة . كـــان بالخضراء (4) بلده ــ رحمه الله ــ صدر صدورها ، وواسطة شذورها ، وخطيب حفلها ، وامام فرضها ونفلها وباشر حصارها ، وعانى ــ علـــى العصور ــ اعصارهـــا .

75 . أ) وله دعاء مستجاب ، وخواطر ليس بينها وبين الحـــق حجاب . وبركة تظهر عليه سيماها ، وديانة لا تعرف الشبهات حماها . وبلاغة لا يشح ينبوعها ، وتقفز من المعانى ربوعها . يدعو الفقر (5) فيذعن عاصيها ، وينزل عصم المعانى من صياصيها .

وقضى ــ رحمه اللـــه ــ فتغير ذلك القطر (6) لذهابه ، واظلم ذلك الافق لافول شهابــــه .

ومن ذلــك فى وصـــف :

7 ــ أبى زكريـــا ابن الســـراج

حامل فنون جمة ، وصاحب نفس بمعادها مهتمة ، شمر فى زمن الشبيبة عن ساقه ، واجتنى ثمرة العلم من بين أوراقه ، وجمع الكثير من

---

4) هى « الجزيرة الخضراء » وتعرف اليوم فى الاسبانية باسم ALGECIRAS
5) فقر . بكسر ففتح كعبـــر ، والمفرد . فقرة بفتح فسكون كعبـــرة .
6) يعنـــى بالقطـــر . الاندلـــس

مختلفاته على بعد شامه من عراقه . حتى انفسح فى المعرفة مجاله ، وشهدت له بالاجادة شيوخه ورجاله . وهو الان خطيب معقل الجبل (7) ـ حرسه الله ـ على طريقة غريبة ، وحالة من الله قريبة ، ملازم لظل جداره ، منقبض فى ركن داره ، ذو همة يحسدها (75 . ب) النجـم على بعد مداره ، ورفعة مقـداره .

لقيته والحال سقيمة ، والحملة ـ بظاهر جبل الفتح ـ مقيمة (8) ، والعدو فى العدوان متبصر ، والكفر محلق وحزب الهدى مقصر (9) . فرأيت رجلا بادى السكينة والوقار ، ناظرا للدنيا بعين الاحتقار ، زاهدا فى المال والعقار ، صاحب دمعة مجيبة ، ومجالسه عجيبة . فكان لقاؤه فائدة الرحلة العظيمة العنا (10) وموجبا لها حسن الثنا . وله قسم من البلاغة وافر ، رحمة الله عليه .

---

7) يعنـى بـه : جبـل طـارق .

8) يرمى بذلك الى الحملة التى قادها الفونسو الحادى عشر القشتالى ، حين حاصر جبل طارق الذى كان ممتنعا بحامية مغربية قوية ، واشتد الحصار يوما بعـد يوم ، وجاء يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة فرابط بجيشه خلف جيش النصارى ، ولبث الوضع الحربى تجاه الجبل على هذه الحالة ، حتى انقضى عام كامل على هذا الحصار . ثم يتدخل القدر لصالح المسلمين ، ذلك ان الوباء قد تفشى بين جنود النصارى وقضى على ملك قشتالة فى مقدمة من قضى عليهم من جيشه ، الامر الذى اضطر الاعداء الى فك الحصار ، فكان هذا بشارة بخلاص الجبل والمدافعين عنه من الداخل والخارج ، وذلك فى ليلة عاشوراء من عام 751 هـ (26 مارس 1350 م) .
راجع : مخطوط « الاحاطة » الاسكوريال 1673 ج 2 ص 382 وما بعدها .

9) توريـة لطيفة فى ثوب من تعبير به اشارات الى بعض مناسك الحج .

10) يشير ابن الخطيب بهذا الى انه كان ضمن حاشية السلطان فى ذلك الحصار .

ومن ذلك في وصف :

8 ـ أبي جعفر ابن أبي خالد * رحمه الله

سابق لا تدرك غايته ، وبطل لا تحجم رايته ، وبليغ تزرى بالافصاح كنايته . وطلع بذلك الافق ونجم ، وطاب عارض بيانه وسجم ، وعجم من عود البلاغة ما عجم ، فأطاعته القوافى والاسجاع ، وأداه الى روض الاجادة والانتجاع . ولم يزل يشحذ قريحته الوقادة ويستدعيها ، (76 . أ) ويسمع الحكم ويعيها ، حتى توفرت فى البراعة اقسامه ، وطبق مفاصل الخطاب حسامه . فطرز المهارق ووشاها وفضح أسرار البلاغة وأفشاها ، وأتى من الرسائل بالآتى السائل . الى الدين الذى لا تغمز قناته ، والخلق الذى يرضى الله حلمه وأناته .

وهذا الخطيب وابن عمه (11) فرسا رهان ، ومقدمتا برهان ، وعلما بيان ، ورضيعا لبان . لكن النثر أغلب على لسانه ، والخطابة أعرق فى نسب احسانه .

ومن ذلك فى وصف :

9 ـ أبى سعيد ابن لب (12)

سابق ركض ملء عنانه ، وشارق طلع فى أفق أوانه . أورى له زند الذكاء اقتداحا ، وأجال فى كل فن قداحا ، فجلى فى ميدان الاجادة وبرز ،

---

11) لم يفصح المؤلف عن اسم هذا القريب .

12) اسمه فرج ، من أعلام الاندلسيين ، ولد عام 700 هـ (1300 م) وتوفى عام 782 هـ (1381 م) وهو من أشهر أساتذة مدرسة غرناطة التى انشأها السلطان ابو الحجاج يوسف الاول ، على يد حاجبه أبى النعيم رضوان النصرى عام 750 هـ (1349 م) .

وطرق المجالس وطرز . فان نقل أوضح العبارة وصقل ، وان نظر وبحث ، نشر رسم المعانى وبعث ، وان بين وعلم أقر له المنازع وسلم .

الى خلق أطيب من الراح ، وأصفى من الماء القراح . وله فى فريضة الادب سهم ، وفى معاناة المعانى تحقيق لا يدخله وهم . (76 . ب) وتقدم للخطابة ببعض أرباض الحضرة فوفى الرتبة حقها ، وسلك من الديـــانـــة طوقهـــا .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

10 ـ أبى يزيـــد خالد ابن أبى خالـــد

أمام بادية ، وضارع بذكر الله فى كل رائحة وغادية ، أنس بالوحدة والانقطاع ، وتعلل بقليل من المتاع . وانقبض وتقشف ، وقبل ثغـــر الحقيقة وترشف . وأكرم به من مجموع خصل ، وضارب فى هدف القبول بنصل . الى اخلاق بينة الحلاوة ، ونغمة طيبة عند التلاوة ، وأدب عطر الجريال ، موشى الطرر والاذيـــال .

ومـــن ذلـــك فى وصـــف :

11 ـ أبى عبـــد الله اليتـيـــم (1)

مجموع أدوات حسان ، من خط ونغمة ولسان ، اخلاقه روض تتضوع نسماته ، وبشرة صبح نتألـــق قسماته ، ولا تخفى سماته ،

---

(1) هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن على بن محمد العبدى ، ترجم له ابن الخطيب فى (التاج المحلى) وكذا فى « الكتيبة الكامنة » ص 59 ـ 60 حيث ذكر لـــه نموذجا رقيقا من شعره . كما نقل المقرى فى (النفح) بعض مراسلات بينه وبين ابن الخطيب ج 8 ص 200 ـ 204 ، توفى رحمه الله عام 750 هـ .

يقرطس أغراض الدعايـــة ويصميها ، ويفـــوق سهام الفكاهـــة الـــى مراميها . فكلما صدرت فى عصره قصيدة هازلة ، أو أبيات منحطة عن الاجادة نازلة ، خمس أبياتها وذيلها ، وصنف معانيها (10 : أ) وسيلها ، وتركها سمر الندمان ، واضحوكة الزمان .

وهو الآن خطيب المسجد الاعلى من مالقة متحل بوقار وسكينة ، حال من أهلها بمكانة مكينة ، لسهولة جانبـــه ، واتضاح مقاصده فـــى الخير ومذاهبه واستقل لاول مرة بالتعليم والتكتيب وبلـــغ الغايـــة فى الوقار والترتيب ، فالشباب لم ينصل خضابه (2) ، ولا سلت للمشيـــب عصابة ، ونفسه بالمحاسن كلفة صبة ، وشانه كله هدى ومحبة .

ومن ذلـــك فى وصـــــف :

12 ـــ ابى عبد الله الخريرز الخياط حرفة

اديب على السنن سالك ، وبليغ لزمام القول مالـــك . كـــان ـــ رحمة الله ـــ خطيبا بثغر وبرة ـــ تولى الله جبره ، وأعاد الى ملكـــة الاسلام أمره ـــ على طريقة مثلى ، وسيرة فضلها يتلـــى ، اخـــذ فى فنون ، ومحاضر من الادب بعيون . وكان رصاف الانتحال والحرفة ، وكم بين الراح المشوبة والصرفة . ولم اظفر من نظمه ـــ على كثرته ، وتالق أسرته ـــ الا بأبيات ، نسبها اليه بعض (10 : ب) أصحابه ، المعتنين بنقـــل آدابـــه .

---

2) خضاب نصول : حناء مزالة .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

13 ـ أبى عبد الله البـــدوى

خطيب طلق اللسان ، وأديب رحب الاحسان . تشرف بالرحلـــة الحجازية ولبس من حسن الحجازية . ثم أسرع ببلده فحط لعتاده الرحل . وأقبل اليه اقبال الغمامة على المحل ، فعظم به الاغتباط ، وتوفر تعدى ــ فى الخطابة ــ النشاط ، ولم تثن ــ عن الغرض غيه ــ الدعابة والانبساط .

وهو الآن خطيب بها يحرك المجامع ، ويقرط المسامع ، ويرسل من الجفون المدامع . وله فى العربية حظ وافر ، وفى الآداب قســـم ســـافـــر .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

14 ـ أبـــى جعفر بن فركون (14)

شيخ الجماعة وقاضيها ، ومنفذ الاحكام وممضيها ، وشائم سيوفها الماضية ومنتضيها . كان ــ رحمه الله ــ لجا لا يساجل موجه ، وفرقدا لا

---

14) هو الشيخ الفقيه ابو جعفر احمد بن محمد بن احمد بن محمد ابن احمد القرشى ، احد أعلام الفقهاء بالاندلس ، طالما اسند اليه منصب القضاء فنهض بأعبائه الجسام . عرف بحسن المجالسة ، وطيب المحاضرة ، دقيق النظر ، مشارا اليه بالعدالة والنزاهة والوقار ، مشهورا برحابة الصدر وحلاوة الدعابة « طال يوما بين يديه قعود رجل اسمه أحمد بن معاوية ، دعا اليه فى حق وقع الفصل فيه ، فأستأذنه فى الذهاب ، فقال : يـــا سيدى ! ينصرف احمد ؟ فقال : لا ينصرف ! فاقام ذلك الرجل وجلا حتى نبه على أن القاضى انما قصد التورية » . تولى القضاء بعدة مدن ، منها رندة ، ومالقة والمرية ، ولما التحق بغرناطة استمر قضاؤه بها مع الخطابة ، وذلك حتى أول عصر السلطان ابى الوليد اسماعيل بن الاحمـــر . ولد ــ رحمه الله ــ عام 649 هـ ، وتوفى فى 16 ذى القعـــدة عـــام 629 هـ .
راجع : ابو الحسن النباهى المالقى فى « المرقبة العليا » ص 138 ــ 139 ط. بيـــــــروت .

تتعاطى أوجه . تقدم لداته ونفسه على أبناء جنسه ، وأربى يومه على أمسه . فهدر هدرة البازل (15) وتقدم فى استنباط الاحكام ومعرفة النوازل (78 . أ) الى وقار تود رضوى حناصته ، وصدر تحسد الارض العريضة ساحته ، ونادرة يدعوها فلا تتوقف ، ويلقى عصاها فتتلقف . وكان له فى الادب مشاركة ، وفى فريضة النظم حصة مباركة .

ومن ذلك فى وصف :

15 — أبى جعفر بن أبى جبل

قد تثنى عليه الخناصر ، وصدر لا يحصر فضائله حاصر . وقاض يريش سهام الاحكام ويبريها ، ويزيل بنظره الشبه التى تعتريها ، ويطبق مقاصد الفصل بذهنه الذلق النصل فيفريها . تولى الاقطار فازدانت ، وتقلد الاحكام فلاحت المعدلة وبانت ، وظهرت الحقوق الشرعية لاهلها حيث كانت .

وأما الادب فكان — رحمه الله — سابق حلبة زمانه ومجتليها ومتناول رايته ومتوليها ، وان كان لغير فن الادب مصروفا ، وبالعلوم الشرعية معروفا .

---

15)—البازل . يقال . رجل بازل ، اى فيه شدة ، وله خبرة ، ويقولون : « رمى بأشهب بازل » . اى بامر صعب .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

16 ـــ أبى بكر ابن شيرين * رحمه الله (16)

خاتمة المحسنين ، وقدوة الفصحاء اللسنين . قريع بيت (78 . ب) زاحم النجوم بكاهله ، وورد من المجد أعذب مناهله . ملأ العيون هديا وسمتا ، وسلك من الوقار طريقة لا ترى عوجا ولا أمتا (17) . فمـــا

---

16) هو الشيخ محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن احمد بن احمد الجذامى المعروف بابن شيرين ، ولد حوالى سنة 600 هـ، بمدينة سبتة ، التى كان قد انتقل اليها ابوه عقب سقوط اشبيلية فى ايدى الاسبان ابان حروب الاسترداد ، اذ اصله من شلب من كورة باجة باشبيلية . تولى الكتابة السلطانية فى غرناطة اواخر عام 605 هـ ، ثم تقلد منصب القضاء بكثير من الجهات بالاندلس . « وكان ـــ رحمه الله ـــ فريد دهره فى حسن السمت ، وجمال الرواء ، وبراعة الخط ، وطيـــب المجالسة ، من اهل الفضل والدين والعدالة ، غاية فى حسن العهد ومجاملة العشرة . اشد الناس اقتدارا على نظم الشعر والكسب الرائق » ، ومن مشايخه جده لامه الاستاذ ابو بكر بن عبيدة الاشبيلى ، والاستاذ ابو اسحاق الغافقى . وروى عن كثيرين من اعلام العصر فمنهم قاضى الجماعة الشيخ الامام ابـــو اسحاق ابراهيم بن عبد الرفيع وغيره ، وذلك ابان رحلته الى تونس ، حيـــث لقـــى هذا العالم الكبيـــر .

من شعـــره فى وصف غرناطـــة :

رعـــى اللـــه مـــن غرناطة متبـــوؤا ... يســـر كئيبـــا ، او يجيـــر طريـــدا

تبرم منها صاحبـــى بعـــد مـــا رأى ... مسارحهـــا بالبـــرد عـــدن جليـــدا

هـــى الثغر صان اللـــه من اهلـــت ... وما خيـــر ثغـــر لا يكـــون بـــرودا

توفى فى اليوم الثالث من شعبان عام 747 هـ ، ولم يترك خلفا من الذكور . راجع : النباهـــى فى « المرقبـــة العليـــا » ص 153 .

17) اقتباسا من قوله تعالى « ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لا ترى فيها عوجا ولا امتا » سورة طه آية . 105 ـــ 107 .

شئت من فضل ذات ، وبراعة أدوات ، ان خط نزل عن درجته وانحط ، وان نظم ونثر ، تتبع البلغاء ذلك الاثر . وان تكلم انصت الحفل لسماعه ، وشرح لدرره النفيسة ــ صدف اسماعه .

وفد على الاندلس ــ عند كاينة سبتة (18) . وقد طوحت النوى برجاله ، وظعن عن ربعه لتوالى امحاله ، (وبهنا) مصرف الدولة في بلادها المستولى على طارفها وتلادها ، مغرس الادب ومقيلها ، وناعش العثرات ومقيلها ، أبو عبد الله بن الحكيم ــ قدس الله صداه ، وسقى منتداه ــ فاهتز لقدومه اهتزاز الصارم ، وتلقاه تلقى الاكارم ، وانهض الى الغاية آماله وألقى له قبل السواده ماله ، ونظمه فى سمت الكتاب ، وأسلاه عن أعمال الاقتاد والاقتاب ، ولم يزل زمامه يتأكد فى هذه الدول ، وتربى له ولايته منها على الاول . فتصرف فى القضاء بجهاتها ، وقادته

---

18) هى احدى المدن الساحبية شمال المغرب وضمن ترابه ، ولكنها تتبع حاليا اسبانيا لها تاريخها على مر العصور الوسطى الاسلامية ، من حيث كونها قاعدة سياسة هامة ، وقد اتخذها الامويون مركزا حربيا رئيسيا ، فكانوا يصدون منها تيار الفاطميين ، وفى القرن الثالث عشر الميلادى استولت عليها أسرة « بنى العزفى » الاندلسية ، ثم بقيت تحت حكم بنى الاحمر امراء غرناطة فترة من الوقت ، ثم استولى عليها البرتغال فى القرن الخامس عشر ، واخيرا ضمها الاسبان اليهم ، وما تزال تحت حكمهم حتى اليوم . واليها ينتسب العالم « مرانة السبتى » من أعلم الناس بالحساب والهندسة والفرائض والتأليف ، ومن تلامذته « ابن مرانة الفرضى » الحاسب ، يقولون انه كان من اهل بلده ، وكان المعتمد بن عباد يقول « اشتهيت ان يكون عندى من اهل سبتة ثلاثة نفر . ابن غازى الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الفرضى » .

اما الكاينة التى يشير اليها المؤلف فقد حدثت عام 605 هـ ، وسنعود الى الحديث عنها فى مناسبة أخرى قادمة .

راجع : الحموى فى « معجم البلدان » جـ 10 ص 182 ــ 183 ط. القاهرة 1906 م .

(79 . أ) العناية هاك وهاتها ، فجدد عهد حكامها العدول من سلفه وقضاتها .

وله فى الادب الذى تحلت بقلائده اللبات والنحور ، وقصرت عن جواهره البحور وسير ذلك ــ فى تضاعيف هذا المجموع ــ ما يشهد بسعة ذرعه ، وبخبر بكرم عنصره ، وطيب نبعه .

ومن ذلك فى وصف :

17 ــ أبى القاسم الخضر بن أبى العافية (19) رحمه الله

فارس ميدان البيان ، وليس الخبر كالعيان ، حامل لواء الاحسان ، لاهل هذا اللسان ، رفل فى حلل البدائع فسحب أذيالها ، وشعشع أكواس العجائب فأدار جريالها ، (20) واقتحم على الفحول أغيالها ، وطمح الى الغاية البعيدة فنالها وتذوكرت المخترعات فقال . أنا لها . عكف واجتهد ، وبرز الى مقارعة المشكلات وشهد ، فعلم وحصل ، وبلغ الغاية وتوصل .

---

(19) هو الشيخ القاضى الحضرى بن أحمد بن أبى العافية الانصارى ، وكنيته أبو القاسم ، ويعرف بابن أبى العافية ، من أهل غرناطة . اشتهر من بين أعلام القضاء ، معروفا بفتاواه وحل المعضلات ، واستخراج النصوص الغريبة ، ونسخه لها بيده ، وتقييده الكثير من المسائل كما كان مضطلعا بنوازل الاحكام، وهو ــ الى ذلك ــ من أئمة النحو فى الاندلس . وكان مقصد القضاة ، ومحل استشارتهم فى المشكلات ، بارعا فى الادب ، ظريفا فى الخط ، ممارسا للشعر . توفى ــ رحمه الله ــ بمدينة برجة ، ولكن دفن فى غرناطة ، عند باب البيرة ، الذى ما يزال قائما حتى اليوم من أبواب العاصمة ، قرب ميدان النصر الآن ، وذلك عصر يوم الاربعاء آخر ربيع الاول من عام 745 هـ ، فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف الاول ابن الاحمر (773 ــ 755 هـ = 1333 ــ 1354 م) كما كان معاصرا للمؤلف (ابن الخطيب) .
راجع النباهى فى « المرقبة العليا » ص 149 ــ 152 .

(20) الجريـة فى الاصل : حوصلة الطائر .

وتولى القضاء فاضطلع بأحكام الشرع وبرع فى معرفة الاصل والفرع ، وتميز فى المسائل بطول الباع (79 : ب) وسعة الذراع فأصبح صدر مصره ، وغرة فى صفحة دهـــره .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

18 ــ أبى اسحاق بن جابر الوادى آشى (21)

فحل هادر ، وبليغ ــ على الكلام ــ قادر . اهتز له العصر علـــى رجاحة أطواده ، وظهر له الفضل على كثرة حساده . ولما جلى فى منصة الابداع بنات فكره ، وحاسن عقائل الحى الحلال بفكره ، طولب باثبات تلك البنوة ، وقيل . هذا الجمل وهذه الكوة ، فخاصم حتى أظهر الحق ، وتمم فاستحق ، وذيل ووطى ، وتجاوز الغاية البعيدة وتخطى .

ولم تزل بدائعه فى اشتهار ، وروضات آدابه أزهار ، وتصرف فى الكتابة فكان صدر ناديها ، وقلادة هاديها . وولى خطة القضاء فى هـــذه المدة ، وقد ناهز اكتماله وبلغ أشده ، وحسنت سيرته ، وأثنت عليه بكل عمل جيرته ، وله نفس الى العلم مرتاحة ، وخواطر تنتجع منه كل ساحة ، هام فيه بكل مستحيل وجائز ، وكلف حتى بعلوم العجائز وشعره جزل الاسلوب ، وعذب (80 . أ) فى الافواه والقلوب .

---

21) النسبة الى « وادى آش » او « وادياش » كما ترسمها بعض المخطوطات ، احدى المدن الاندلسية ، تقع شمال شرق غرناطة ، على نهر فردس ، وتبعد عن العاصمة بنحو خمسة وخمسين كيلومترا ، وللمدينة تاريخها عبر العصر الاسلامى ، وما تزال قائمة حتى اليـــوم .

راجع: الحميرى فى «الروض المعطار» ص 192 ــ 193 نشر ليفى بروفنسال، ط. لنـــــــدن 1938 .

ومن ذلــك فى وصــف :

19 ــ أبى عبد الله بن غالب الطريفى

طويل القادمة والخافية (22) محكم لبناء البيت وتأسيس القافية . صاحب طبع معين ، وآت من القصائد بحــور عين . عكف على النظــم فى جيله ، عكوف الراهب على انجيله . ولم يزل يغوق الى كل غرض سهامه ، ويستسقى صيبه وجهامه ، ويهز ماضيه وكهامه ، حتى اشتهرت أبياته ، وحفظت بديهياته ورروياته . وتصرف فى القضاء فاستقام أوده ، وانطلقت فى الحكــم يــده .

وكانت له وفادات على ملوك هذه الدول ، فى العصور الاول ، نظم فيها ومدح ، وقدح من قريحته مــا قــدح .

وتوفى ببلده عن سن عالية ، وزمانة متوالية . ولما شرع المؤلف ــ رضى الله عنه ــ فى انشاء هذا الكتاب بعث اليه بعض أهل بلده ــ ممن عنى بحفظ الطروس ، واحيائها بعد الدروس ــ (80 . ب) بمهارق (23) أكل الدهر منها ما تجسم ، وانتهبها الدهر ما شاء وتقسم ، فأثبت له ما ينظــر فى محله ، ان شــاء اللـــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

20 ــ أبى القاسم المعروف بابن الجمالة

صدر فى القضاء ، وينبوع للخلال المرتضاة ، وطائع لسيوف الكلم المــنتضــــــاة .

---

22) القوادم والخوافى . أوصاف تتعلق بريش الطائر ، فالقوادم هى الريشات فى مقدم الجناح ، وهى عادة تكون كبار الريش ، والخوافى صغاره ، ومكانها تحــت القوادم ، التعبير هنا مستعار للكناية .

23) المهــارق : جمع مهرق ، وهو الصحيفــة .

نشأ ببلده رندة (24) ــ حرسها الله ــ صدر سكانها ، وفضيلـــة مكانها وزمانها ، وعين أعيانها ، وحامل لواء بيانها . ولم يزل يسلك من الفضل على السنن المأثور ، ويركض جياد المنثور ، فأغرب الغـــرب بآدابه ، وتعلق الاحسان بأهدابـــه .

وتولى الاحكام الشرعية ، فأجال قداحها ، وقرر مكروهها ومباحها ، وتناول المسائل فأبان صباحها ، حتى خلصت فيه السرائر ، وعقدت على حبه الضمائر ، وطابت به الخواطر ، وتضوع من ثنائه المسك العاطر . وقعد لهذا العهد الاكبر ، وحوم عليه الاجل المنتظر ، فتعطلت لضعفه تلك النسوق (81 .) ، وعدم ــ لانعدام بيانه ــ الدر المنسوق .

---

24) تقع مدينة رندة غرب مالقة ، وقد كانت من اهم القواعد الاندلسية ، كما كانت من أهم مدن غرناطة ، وتعتبر الحصن الذى يحمى مالقة من ناحية الغرب ، ولذلك لما سقطت رندة فى يد الاسبان فى ابريل 1485 م (جمادى الاولى 890 هـ) أضحى الطريق سهلا لاستيلاء القشتاليين على مالقة ، فقد سقطت هذه الاخيرة بعد قليل فى ايديهم (اغسطس 1487 م) = (شعبان 892 هـ) . وتشرف المدينة على منطقة عالية من الربى ، ويشقها من وسطها وادى ليبين ، وقد وصف ابن بطوطة رندة حينما زار الاندلس عام 1350 م بقوله :

« وهى من امنع معاقل المسلمين ، واجملها وصفا » ويبلغ عدد سكانها حاليا 50 الف نسمة ، فهى مدينة متوسطة الحجم ، يغلب عليها طابع القدم والبساطة ، وتبدو فى مسحة اندلسية واضحة ، من أهم الآثار العربية بها حتى اليوم اطلال القصبة الشهيرة ، والقنطرة عند مدخل المدينة الغربى ، وهى ذات عقد واحد بالغ الارتفاع ، ثم الحمامات العربية وهى اطلال دارسة ، تقع بمقربة مـــن الكنيسة العظمى ، ومن الآثار كذلك « المنـــارة » فى نهاية المدينة ، ويبلغ طولها حوالى 12 مترا ، وقصر الامير ابى مالك ، ويقع فى طرف المدينـــة الجنوبى ، وباب المقابر فى حى « فرانسيسكو » ، والى هذه المدينة ينسب الفقيه ابن عبـــاد الرندى .

راجع : ما كتبه « ليفى بروفنسال » عن هذه المدينة فى Enc. 151f- 111,P. 1254 ثم مجلة الاندلس ، العدد 472 (1944) .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

21 ـــ أبـى الحجـاج المتشافرى

حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجم الذنوب ، مـا شئت من بشر يتألق ، وأدب تتعطر به النسمات وتتخلق ، ونفس كريمة الشمائل والضرائب ، وقريحة يقذف بحرها بماء الغرائب . الى خشية لله تعالى تحول بين القلوب وقرارها ومراقبة تثنى النفوس (عـن) اغترارها . ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو بدرر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذى علم وأدب ، وبحث عمن يمت ـــ الى أهل الديانة والعبادة ـــ بسبـــــب .

سبق بقطره الحلبة ، ففرع من الادب الهضبة ، ورفع الراية ، وبلغ الغاية . فطارت قصائده كل المطار ، وتغنى بها راكب الفلـك وحادى القطار . وتقلد خطة القضاء ببلده ، وانتهت اليه رياسة الاحكام بيـن أهله وولده ، فوضحت المذاهب بفضل مذهبه وحسن مقصده . ولـه شيمة فى الوفاء تعلم منها الآس ، ومؤانسة عذبه لا تستطيعها الاكواس .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

22 ـــ أبى محمد عبد الحق بن عطية (25)

قريع بيت أصيل ، وصدر معرفة وتحصيل . نشأ على العفاف ،

---

25) هو الشيخ القاضى عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربـى . نشأ بغرناطة ، وتولى القضاء بالمدن الاندلسية ، واشتهر بيته بالعلم والفضل والكرم ، وعرف هو بالتبريز فى الاحكام والحديث والتفسير ، كما كان بارعا فى الادب والشعر ، لغويا ، مستخرجا للنصوص ، مقيدا لها . له تفسيره القرآنى المشهور « الوجيز فى التفسير » ، يقولون : انه من احسن التآليف وابـداع التصانيف فى هذا المضمار ، وتقوم بطبعه الآن وزارة الاوقاف المغربية ، ونشرت منه بعض اجزائـه . كانت ولادته عـام 481 هـ ، وتوفى رحمه اللـه يـوم 25 رمضان عام 541 هـ .
راجع : « المرقبة العليا » للنباهـى ، ص 109 .

وتبلغ بالكفاف ، وعمل على شاكلة من له من كرام الاسلاف . السى نفس ملابسها الحيا والوقار ، وأدب ينم عنه أخلاقه كما تنم تحت الزجاجة العقار ، وخط تهيم بمرقومه الابصار ، وبلاغة هذبها الاختصار ، ومحاضرة تتجلى بها الليالسى القصسار .

تقدم بقطره الى الخطابة والامامة ، أطهر من ماء الغمامة وأطيب من بنت الكمامة ، ففرع — على حداثة السن — أعوادها ، وبلغ آمادها ، وأصبح من الصدور فؤادها ، ومن العيون سوادها ولا ينكر العذب فى ينبوعه ، والنور فى مشرق طلوعه . وقد أثبت من أدبه ، ما يعرب عن مذهبسه .

ومن ذلسك فى وصسف :

23 — أبسى القاسم بسن عيسى

قريع فضل ومجادة ، وضارب فى هدف الآداب بسهم اجادة .

كان أبوه — رحمه الله — خطيب مالقة (26) صدر فضلائهسا ، وواسطة (82 .) علائها . ونشأ هذا الفاضل — رحمه الله — سالكسا فى العفاف على مسلكه ، ومتنقلا فى درجات فلكه .

---

26) هى مدينة ساحلية على البحر الابيض المتوسط ، جنوب شرق الاندلس ، يرجع تأسيسها الى الفنيقيين عام 1200 ق. م. ، كانت تشتهر قديما بالاسماك المملحة ، وتتوفر المدينة حاليا على اجود انواع الفواكه ، ولها شهرة فى صناعة الفخار . ولقد كانت عاصمة الحموديين الادارسة زمن ملوك الطوائف والى هذا يشير لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه « معيار الاختيار ، فى ذكر المعيار والديار » فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان اكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة » ، كما كان بنو الاحمر يعتبرونهاالعاصمة الثانية بعد غرناطة .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » جـ 1 ص 186 ، تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد ط. القاهسرة .

تولى القضاء لاول أمره ، على حداثة سنة وجدة عمره . ثم دعى للكتابة فتنقل الى الحضرة (14) وتحول ، وعزم على المقام بها وعول ، فأجال براعته ، وشهر براعته . ولما عضه الاغتراب ، وباين وطنه كما باين السيف القراب ، شاقه الاهل والاتراب ، والماء والتراب ، وحن الى دوحه الذى به تأود ، وكبرت عليه الخدمة وصعب على الانسان ما لم يعود . فرغب فى الانصراف الى بلده ، واحتمال أهله وولده . وهو اليوم قاضى جهاتها الغربية ، ومنفذ أحكامها الشرعية .

وله أدب وخط ، وبحر من المعرفة ليس له شط . وقد أثبت من شعره ما يشيد بذكره .

ومن ذلك فى وصف :

24 — ابى زيد خالد بن خالد

فائز من الابداع بكل مطلوب ، ومشتمل اسماع وقلوب ، (82 . ب) وفى البداوة حسن غير مجلوب (28) . قدح قريحته الوقادة ، وراض صعب الكلام فأعطاه المقادة . فتألق بذلك الافق تألق البرق ، وطلع بتلك الجهة الشرقية ولا ينكر النور على الشرق . فشرف فى قومه ، وأصبح فيه امسه منافسا ليومه . الى بلاغه تتحلى بها صفحات المهارق، وعفاف حتى عن الخيال الطارق .

ورحل الى هذا العهد القريب ، وقد أصبح بحسن ضراييه عديم الضرايب ، فاقتحم فرصة المجاز (29) ، الى مثابة الحجاز ،فقضى وطره

---

27) يعنى بالحضرة : غرناطة العاصمة النصرية .

28) عجز بيت يروى هكذا :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفى البداوة حسن غير مجلوب

29) يعنى انه عبر مضيق جبل طارق .

من تلك المشاهد وتبرك بلقاء أهلها من عالم وزاهد . وقفل وقد دون رحلة سفره ، وزها بها زهو الجفن بزهره ، والخد بخفره .

واجتاز بالبلاد الموحدية ، فدعته الى خدمة بابها ، وقلدته رياسة كتابها . فأينع روضه واثمر ، وحل بهالتها فأضاء وأبدر ، فلم يكن الا كلا وأكثر . حتى جذبه الشوق برسنه ، وطار به الوجد الى وطنه . فأسرع اللحاق ، وأثار على النور المحاق ، وعلى ذلك فقد ولى للحين (83 .) ببلدته قضاءها ، وتقلد انفاذ الاحكام وامضاءها ، رحمه الله .

ومن ذلك فى وصف :

25 ــ أبى عبد الله بن عبدة

مجموع أدوات ، وفارس قلم ودواة . وشيخ تقع العين منه على صورة طريفة وهيئة ظريفة ، وقريع بيت نبيه ، وأصالة ليس لها من شبيه . وله خط حسن وبلاغة ولسن . تصرف فى القضاء فما ذوى لسيرته نور ، ولا نسب له حليف ولا جور .

ومن ذلك فى وصف :

26 ــ ابى زكريا القباعى

شاعر ، اذا نظم أجاد ، وان استسقى طبعه جاد . الى ديانة سابغة الاذيال ، واخلاق معتقة الجريال (30) ، ومعان الطف من طيف الخيال . ولم أقف من كلامه الا على قصيدة ، مبدية فى الاحسان معيدة ، يخاطب بها الوزير أبا بكر بن الحكيم (31) .

---

30) الجريسة : فى الاصل حوصلة الطائر ، وربما عنى هنا وعاء المسك فى جسم الغزال .

31) سيفرد له ترجمة خاصة بعد قليل .

ومن ذلــك فى وصــف :

27 ـ أبــى جعفــر السياســى

حسن الاغراض ، يقى الجواهر من مخالطة الاعراض ، وأدب غض كزهر الرياض ، ومعان كمن فيها الابداع (83 . ب) كمون السحر فى الجفون المراض وتقدم للقضاء ببعض تلك الجهات . فأقام رسمه ، وانفذ حكمه ، بنزاهة مأثورة ، وسيرة مشكــورة .

ومن ذلــك فى وصــف :

28 ـ أبى جعفر بن عبد الحــق

مجموع فضائل ، وكامل لم يدع مقالا لقائل . ان ذكرت المعارف فهى من حلابه ، أو تليت سورة السور كان ذكره أم كتابه .

قعد ببلده يدرس العلــم ويجيل قداحه ، ويدير أكواس البيــان ويشعشع راحة فأصبح به غرة ، وبلبل عصره ودره . الى وقار تحسد العضاب سكونه ، وتهوى أن تكونه . واقناع بحسب كل سائل ، ومقيم من المشكلات كل مائل . وأدب لا تشح رهامه (32) ولا تتعدى الغرض سهامه ، صدر معظمه فى دول درسه ، واجتناه ثمرة لعلم من غرسه ، على جهة التعليم والتدريب ، لمنتحلى البيان والغريب .

---

32) الــرهــام : ج رهمة بكسر فسكون ، المطر الخفيف الدائم .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

29 ــ الحكيم المفرد أبى عثمان بن لبون *

مجتهد مشمر ، منقبض عن الناس متغمر . قصر ــ على نظر العلم ــ أوقاته ، وتبلغ بالقليل بغاناته . وعكف على التقييد والتدوين (84 . أ) ، واكتسب من الامهات كل ذخر ثمين ، وهلم حـــرا ، فقد اشتهر بفوده صبح المشيب ، ونضا برده الزمن القشيب . وما فتر عن مواصلة اجتهاد ، وايثار أرقه وسهاده ، ومال الى صناعة الطب فدون فيها ، وشارك منتحليها . وجعلها مـــادة حاله ، ومحط رحاله .

وله نظم حسن ، وعارضة ولسن ، نظم به العلوم ودون ، وتقلد فى شتى المآخذ وتلون . وبآخره فهو روضة انيقة ، وخميلة وحديقة ، وضارب بسهم فى كل طريقة . وقد أثبت من شعره يسيرا ، جعلتـــــه للمحاسن اكسيـــرا (33) .

---

* هو الشيخ أبو عثمان سعيد بن احمد بن ليون ، احد شيوخ المؤلف ، كان ميالا الى اختصار الكتب ، وصفه المقرى بقوله : « . . وتواليفه تزيد على المائة ، وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين » ، وقد أورد له مجموعة كبيرة من مقطعاته الشعريـــة .

انظر : المقرى فى « النفح » حـ 8 ص 58 ، ونيل الابتهاج ، حـ 5 : 1 (ط. فاس) ، والكتيبة الكامنة ، ص 86 ، 87 (بيروت 1963) .

(33) الاكسير : فى الاصل مادة تلقى على الفضة فتتحول الى ذهب خالص ، وهو من الخرافات ، ولكن فى العلم الحديث يعنى الاكسير « مادة الحياة وسرها » لاى شـــىء عامـــة .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

30 ـ المكتب أبى عبد الله ابن قاسم المالقى

مجدد مرتل ، وعابر متبتل ، على ما يزلفه من صالح الاعمال ويدنيه . عكف على تعليم كتاب الله العزيز ، وشمر على قدم التبريز ، وارتضاه الوزير ابن الحكيم * أماما لصلاته ، واعتمد بجوايزه الجزيلة وصلاته . ولم يزل (84 : ب) يرفعه يضبعه (34) حتى عصف الدهـر بربعه . فضاع ضياع مصباح الصباح ، ولعبت به الايام كما لعبت بالهشيم أيدى الرياح . وتقلبت به أيدى الزمان ، واحوجت الثمانون سمعه الـــى ترجمـــان (35) .

وله أدب محكم القوى ، منيع الهضبات والصوى (36) .

---

34) القصد من التعبير . الاشادة بالذكر عاليـــا .

35) اقتباسا من قول الشاعر :

ان الثمـــانيـــن ــ وبلغتهـــــا   قـــد أحوجت سمعى الـــى ترجمان

والتعبير كناية عن بلوغ المترجم له مرحلة متأخرة من العمر .

36) الصوى : ما يوضع من احجار كدليل بالطريق .

* سنفى لهذا الوزير ترجمة ضافيـــة ، وذلك عند حديث المؤلف عن « الخطيب اى عبد الله بن رشيـــد » .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

31 ـ ابـــن عبد الله بن الضايغ

مـــن أهل المريـــة (37)

بحر معرفة لا يغيض ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض . نشـــأ من بلاده مشمرا عن ساعد اجتهاده ، وسائر فى فن العلم ووهاده ،

---

(37) المرية . مدينة كبيرة جنوب شرق الاندلس تعرف فى الاسبانية باسم Almaria وهى من اجمل الثغور والمدن الاندلسية ، وعاصمة الولاية المسماة باسمها ، يبلغ تعداد سكانها حوالى 83.000 نسمة ، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفاكهة ، وكانت فى العهد الاسلامى من أهم ثغور الاندلس الجنوبية ، ولهـــا اصالتها التجارية ، فقد ذكر ابن الخطيب انه كانت تقطنها على أيامه جالية أجنبية من النصارى الاسبان وغيرهم ، وكانت مهنة معظمهم التجارة استيـــرادا وتصدير ، وترجع شهرتها فى هذا الى صناعة الحلل الحريرية الموشاة ، وقد اعانها موقعها البحرى على تصدير هذه الصناعة الى الخارج بواسطة السفن ، والى الداخل بواسطة القوافل البرية وقد ذكر « المقرى » فى روايته عن كتاب « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » لابن خاتمة الانصارى أحد أبنائها ـــ انه كانت بالمرية على عهده 800 نول لطرز الحرير ، و 100 للحلل النسية والديباج وامثال هذا العدد مكرر لانواع أخرى من هذه الصناعة ، كالستر المكللة وغيرها . كما ذكر عن نفس المصدر أنه كانت تصنع بالمرية صنوف متنوعة مـــن آلات الحديد والنحاس واشكال من الزجاج ، وكلها مما لا يكاد يوصف ، ثم اضـــاف « ابن خاتمة » قائلا . انه لم يكن فى بلاد الاندلس اكثر مالا من اهل المرية ، ولا أعظم متاجر ولا اوفر ذخائر ، وانه كانت بها دار للصناعة .

ولقد بنى المدينة اصلا الخليفة الاموى عبد الرحمن الثالث « الناصر » عام 344 هـ 955 م ، وسقطت فى يد الاسبان ابان حروب الاسترداد عام 895 هـ (1490 م). راجع . الروض المعطار للحميرى ، ص 183 ـــ 184 ، وخطرة الطيف ، ضمن « مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد الاندلس والمغرب » ص 143 ، بتحقيـــق د. العبادى ط. جامعة الاسكندرية 1958 ، ونفح الطيب للمقرى ج 1 ص 154، ثم ما ذكره المستشرق « زيبولد » فى دائرة المعارف الاسلامية عن وضعية هذه المدينة فى العصر العربى ج 1 ص 319 .

ومواصلا لأرقة فيه وسهاده ، حتى أينع روضه ، وفهق حوضه (38) ، وأضاءت سرجه ، وتعطر أرجه .

ولما استكمل من المعارف ما استكمل ، وبلغ ما أمل ، أخذ فى اراحة ذاته ، وشام فوارق لذاتـــه .

ثم سار فى البطالة سير الجموح ، وواصل الغبوق الصبوح (39) ، حتى قضى وطره ، وسئم بطره . وركب الفلك وخاض اللجج الحلك . واستقر (85 . أ) بمصر على النعمة العريضة بعد قضاء الفريضة ، وهو اليوم (40) بمدرستها الصالحية (41) ــ عمرها الله بذكره ــ نبيه المكانة ، معدودا فى أهل العلم والديانة . وصدرت عنه الى هذه البلاد قصيده نبوية ، تغنى بها الحادى المطرب ، وكلف بها المصعد والمصوب، تدل على انفساح طباعه ، وامتداد باعــه .

---

38) فهق الحوض أو الاناء : امتلأ حتى صار يتصبب ، والكناية هنا عن استكمال المترجم له لاسباب العلم والمعرفة .

39) الغبوق . العشى . والصبوح ، الغداة ، والقصد هنا . مواصلة ليله بنهاره فيما هو بصدده .

40) عصر المؤلف (ابن الخطيب) .

41) تنسب هذه المدرسة الى منشئها السلطان الايوبى من دولة المماليك البحريـــة بمصر البالغ عددهم 24 سلطانا (1250 ــ 1290 م) ، وهم قسيم لمن بعدهم من المماليك البرجية ، وهؤلاء يبلغون 23 سلطانا (1382 ــ 1517 م) والجميع يرجعون أصلا الى اجناس شتى فمنهم التركى والشركسى والمغولى والايطالى والالمانى واليونانى . وقد طارت شهرة المماليك لما حققوه لمصر من قوة وثروة وسلطان ، كما يرتبط تاريخهم بصد الخطر المغولى ، وانهم اخرجوا الصليبيين من الشام ، حتى غدوا القوة العظمى دفاعا عن العالم الاسلامى يومئـــــذ ، ويعتبرون فى النهاية آخر الدول المستقلة التى حكمت مصر .
راجع . تاريخ العالم العربى وحضارته ، للدكتور زيادة وآخرين . ص 215 ــ 217 ط (القاهرة الخامسة 1965 م) .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

32 ــ ابى عبد الله بن الحاج البضيعة

مدد المقاصد ، آخذ للمعانى بالمراصد ، وكاتب شروط لا يساجل فى مضمارها صحة فصول ، وتوقيع فروع على أصول . وكلما طلـــب بالنظم القريحة ، وأعمل فكرته الصريحة ، أجابت ولبت ، وتسنمت رياح بيانه وهبت . . وحفظت العامة من كلامه لقربه من افهامها ، وانتصاب غرضـــه اسهامهـــا .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

33 ــ أبـــى عبد الله بـــن عصام

منتم الى حسب ومجد ، وفارع من الاصالة كل نجد ، وان نوزع فيها بخصام . وخلفه الذى رأس من بعده ، واستوفى بمرسية (85 : ب) حظ سعده حتى أتاه الاجل لوعده ، وراعه الدهر ببرقه ورعده .

وكان هذا الرجل عدلا من عدول بلده ، وذاهبا من الفضل الـــى أقصى أمده لولا تهور وافرط ، وطيش تخبط فى شركه وتورط .

وله أدب ضعيف المبنى ، خال من المعنى ، كان يسهل عليه ، وينثال بين يديـــــــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

34 ــ ابى جعفر بن أبـــى غالب

ماطر جاد بالوابل السجم ، وشاعر افتتح بيتا فى النجم . وبليـــغ قاد الكلام برسنه وايقظ طرف البلاغة من وسنه ، وطبق فصل الخطاب بلسنـــــه .

كان وابن عمه ــ رحمهما الله ــ فرسى سباق ، ومديرى كــأس اصطبــاح للادب واغتباق . غير أنه كان أشد انقباضا ، وأكثر أزورارا (42) عن الخدمة واعراضا . وابن عمه اسمح طباعا ، وافسح باعا ، واوفر صاعا ، فقد انتجع واسترفد ، وأصلح بتعريضه واقتصد ، حسبمــا تضمنه كتابى المسمى بـ « طرفة العصر ، فى اخبار دولة بنى نصر » .

وقد أثبت من شعر أبى جعفر (86 . أ) هذا ما يشهد باجادته ، وبنظمه فى فرسان الكلام وقادتــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

35 ـــ أبــى الحسن الرقــاص

سابق لا يشق غباره ، ودوح فنون لا يغب جناه (42) ولا تذبــل أزهاره . تتبع الغوامض بثاقب فهمه ، وأصمى كل مشكلة بسهمه (43) فشأى حلبته وتقدمها ، وزاول المعارف وخدمها ، فترشف منها كل ريقه ، ولم يقتصر على طريقة ، وتفيأ كل حديقة ، من مجاز وحقيقة . فكلما استمطرته صاب ، أو رميت به غرضا أصاب . حتى تضوع نسيمه الهمم ، لطبيعة الشمائل والشيــم .

وقد أثبت من أدبه ــ الذى خاطبنى به ــ كل عطر النفحة ، مشرق الصفحـــــــة .

---

42) الازورار . مصدر أزور ، وهو العدول والانحراف .

42) غبت الفاكهة تغب . بمعنى انها تأتى ثمارها اياما بعد ايام ، فالقصد هنـــا ان المترجم له لا ينقطـــع له انتـــاج .

43) اصماه السهم . أصاب منه مقتلا ، والمقصود هنا اصابة التوفيــق فى شتـــى المشاكل المعروضة عليه ، وذلك بما يتوفر عليه الشيخ من فقه وتصرف .

ومن ذلـك فى وصـف :

36 ـ أبى عبد اللـه النجـار

متقنن مشارك ، واخذ فى الادب غير تارك . برع فى الوثيقة وأحكامها وتنزيل فصولها على مقتضيات أحكامها . الى نفس جبلت على حسن الاخلاق ، وشمائل أعذب من المـاء الزلال (86 . ب) فى المذاق ، وايناس يسرى فى الارواح سرى الراح ، ومذاكرة اشهى من العذب القراح .

وهو ـ الآن ـ صدر فى عدول بلده ، وسابق تقف الحلبـة منهم دون أمـره .

ومن ذلـك فى وصـف :

37 ـ أبى عبد اللـه الزيان الوقشى

صنع اليدين ، فايز من سهام الضراب بالفريضة والدين . اذا زين الطروس (44) وقطر أصباغها ، وأحكم فى قوالب السحر افراغها ، حسر قدح تلوينها ، وحقرت الرياض بساتينها . الى خط يقف عنده الطرف ، وأدب كالروض راق منه المجتلى وتارج العرف (45) ونفس أرق من نسيم الفجر ، واخلاق أعذب من الوصل فى عقب الهجر .

وقد أثبت من كلامه ما تعذب موارده ، وتروق شوارده .

---

(44) الطروس = ج طرس بكسر فسكون ، وهو الصحيفة .

(45) العرف . الرائحة عموما ، والاستعمال الاكثر للرائحة الطيبة ، فتارج العـرف هنا ، انتشرت رائحته الطيبة .

ومن ذلـــك فى وصــــف :

38 ــ أبى القاسم بــن رضوان

أديب أحسن ما شاء ، وفتح قليب قلبه فملأ الدلو بل الرشاء ، وعانى فى حداثته الشعر والانشاء . وله ببلده بيت معمور ، بفضـــل وأمانة ، ومجد وديانة ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصون ، فما مـــال الى فساد بعد الكون . وله خط بارع ، وفهم الى الغوامض مسارع ، فقد أثبت من كلامه ، ونفثات أقلامه ، كل محكم العقود ، زارا بابنة العنقـــــود .

ومن ذلـــك فى وصــــف :

39 ــ أبى جعفر بن صاحب الصلات

محسن لا ينازع احسانه ، وبليغ لا يساجل لسانه ، وذكى يتوقد فهمه ، ومجيد يصيب كل غرض بسهمه . فما شئت من ادراك ماضية نصوله ، وذكاء علت فروعه وطابت أصوله ، (87 : أ) وطرف كالروض لما اعتدلت فصوله ، وأدب شدت معاقده ، فلا يطمع فيه ناقده .

جالسته فى بعض التوجيهات الى مالقة ــ حرسها الله ــ فرضته روضا تعطر وتأرج ، ومر به نسيم دارين (46) يتأرج . فلما ظفرت بجناه الطيب ، وقعدت تحت عمامة الصيب ، تركت خبره لعيانه ، وخطبت نبذة من بيانه ، فأنشدنى مـــا يذكـــر .

---

46) دارين . موضع بالبحرين فى الخليج العربى ، يجلب اليه السمك من الهنـــد ، وينسب اليهـــا .

ومن ذلــك فى وصــف :

40 ــ أبــى بكر بــن مقاتــل

تابعة مالقية ، وخلف ممن ترك الادباء وبقية ، ومغربى الوطن اخلاقه مشرقية . اشتهر بالاجادة بين أصحابه ، وتألق البارق خــلال سحابه حتى اشتهر احسانه ، ومضى عند الشعر لسانه . ثم أزمــع الرحيل الى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق ، وسهم القــدر لا يخطى ، ومن استحثه الاجل لا يبطى . ولما توسطت السفينة اللجج ، وقارعت الثبج ، هال عليها البحر فسقاها كأس الحمام ، وأولدها قبل التمام . وكان رحمه الله فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره سوادها ، من الطلبة والادباء ، وابناء السراة الحسناء . أصبح كل منهم مطيعا ، لداعى الردى سميعا ، وأجبوا فرادى وماتوا جميعا . فملأوا القلوب حزنا ، وأرسلوا العبرات مزنا ، وكان البحر لما طمس سبــل خلاصها وسدها ، وأهال هضبة سفينتهم وهدها ، غار لدررهم النفيسة فاستردهـــــا .

والفقيه أبو بكر ــ مع اكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ــ لم أظفر من أدبه الا باليسير التافه ، بعد وداعــه وانصرافه .

ومن ذلــك فى وصــف :

41 ــ المؤذن أبى الحجاج بن مرزوق

(88 . أ) خير استبق الى داعى الفلاح استباقا ، وانتهى الــى القوم الذين هم فى الآخرة أطول أعناقا ، وان كانوا فى الدنيا أضيــق أرزاقا . مردد أذكار ، ومسبح أسحار ، وعامر مئذنة ومنــار . كــان

ببلده رندة ــ حرسها الله ــ مؤذنا بجامعها ، ومؤقتا بام صوامعها (47) ومعتبرا فيمن كان بها من فضلاء السدنة (48) وممن يشمله قولــه « فكانما قرب بدنــه » ، وكان له لسان مخيف ، وشعر سخيف ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة كربتـــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

42 ــ أبى الحسن ابــن الجياب (49)

صدر الصدور الجلة ، وعلم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابــة وبانيها ، وهاصر أغنان البدايع وجانيها . اعتمدته الرياسة فناى بها على ذراعه ، واستعانت بــه السياسة فدارت أفلاكها على شباة يراعه . فتفيأ للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدول فم تــر بــه بديلا .

---

47) يرمى المؤلف الى ان المترجم له كان مؤذنا بالمسجد الكبير الجامع بالمدينة .

48) اصل السدانة . خدمة الكعبة او بيوت العبادة ، والمراد هنا انه كان احد حجاب وخدمة المسجــد .

49) هو رئيس الديوان ، العلامة الاديب ، على بن محمد بن سليمان بن على بن سليمان ابن الحسن الغرناطى الانصارى ، يكنى ابا الحسن ، ويعرف بابــــن الجياب . ولد بغرناطة فى جمادى الاول 573 هـ (نوفمبر ــ ديسمبر 1174 م) . درس العلم والادب على فطاحل العلماء وكبار الادباء ممن حفل بهم عصره ، فمن مشايخه احمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفى ، ومن تلامذته المبرزين المشهورين المؤلف نفسه (ابن الخطيب) . ويعتبر هذا الرئيس فى طليعة الكتاب والشعراء الذين حفل بهم بلاط بنى الاحمر ، وخاصة السلطان ابا الحجاج يوســف الاول (733 ــ 755 هـ) . ولم يقتصر شعره على المديح شان بقية شعراء الملوك ، وانما تجاوزه الى فنون الشعر الاخرى ، فاجاد التصرف فى مختلف المناسبات ، كما اسهم بحظ وافر فى الاحاجى الشعرية ، حتى قال عنه تلميذه ابن الخطيب . « ولم ار احدا أحكم الالغاز مثل ما احكمه ابن الجياب » . وقد نوه بالمترجم له فى الميدان الشعرى ــ بعد ابن الخطيب ــ ابن حجر العسقلانــــى فى كتابه . « الــدرر الكامنة ، فى شعراء المائة الثامنة » مستشهدا ببعض اشعــاره ،

من ندب (50) ـ على علوه ـ متواضع ، وجد لثدى المعارف راضع، لا تمر مذاكرة فى فن الاوله فيه التبريز ، ولا تعرض جواهر الكلام على محكات (88 . ب) الافهام الا وكلامه الابريز (51) . حتى أصبح الدهر راوى احسانه ، وناطقا بلسانه . وغرب ذكره وشرق ، وتجاوز البحر الاخضر والخليج الازرق (52) . الى نفس هذبت الآداب شمائلها وجادت

التى أورد المقرى جزءا منها غير يسير فى « نفح الطيب » . هذا ، ولابن الجياب جولاته فى صناعة الكتابة ، ويكفى شاهدا له تلك الرسائل التى دبجها قلمه ـ على لسان سلطانه ابى الحجاج ـ الى من عاصره من ملوك المسلمين والنصارى ، وما كان يسطره من المراسيم الملكية ، تلك التى جمع منها ابن الخطيب قدرا فى رسالته المسماة « تافه من جم ، ونقطة من يم » ، كما وصفه ابن خدون بأنه « شيخ العدوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الادبية » ، ولكن يبدو ان ابن الجياب كان اقصر باعا فى النثر عنه فى النظم ، مما جعل المقرى يسجل عليه مثل هذا بقوله « ويظهر لى أن نظمه أعلى طبقة من نثره ، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظما ولا نثرا » .

تولى ابن الجياب منصب الكتابة للسلطان ابى الوليد اسماعيل ابن الاحمر ، ثم لابنه من بعده السلطان ابى عبد الله محمد الرابع، ثم لاخيه السلطان ابى الحجاج يوسف الاول ، وخلال هذه الفترة ظل يتقلب فى ديوان الانشاء حتى ظفر برياسته، وكان من زملائه وأعوانه فى الديوان الوزير عبد الله بن سعيد والد ابن الخطيب، الذى استشهد فى وقعة طريف الكبرى (741 هـ) ، فخلفه فى خدمة القصر ولده لسان الدين ، فقلده ابن الجياب منصب أمانة السر .

توفى ابن الجياب فى محنة الوباء الكبير الذى اجتاح الاندلس ضمن ما اجتاح من دول حوض البحر المتوسط ، وكانت وفاته فى 23 شوال 749 هـ (14 يناير 1349 م) ، فى العاصمة غرناطة حيث دفن بها رحمه الله .

راجع . المقرى فى « نفح الطيب » ج 7 ص 352 ـ 384 تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد ـ القاهرة 1949 م . وكذا « يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة » للمحقق ، ص 54 ـ 55 نشر لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م.

50) الندب . بتشديد النون مع الفتح وسكون الدال ، هو السريع الى الفضائل ، كما يطلق على الظريف النجيب ، والجمع منه ندوب وندباء .

51) الابريز . الذهب الخالص .

52) لعله يقصد بالاول . البحر المتوسط ، وبالثانى . الخليج العربى .

الرياضة خمائلها ، ومراقبة لربه ، وانتشاق لروح الله من مهبه . ودين لا يعجم عوده ، ولا تخلف وعوده .

ولكم ظهر علينا — معشر بنيه — شارة تجلى بها العين ، أو اشارة كما سبك اللجين ، فهى اليه منسوبة ، وفى حسناته محسوبة . فانما هى أنفس راضها بآدابه ، وأعلقها بأهدابه . وهذب طباعها ، كالشمس تلقى على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة تترك فى الاجسام الصقيلة انطباعها (53) ، وما عسى أن أقول فى امام الائمة ، ونور الدياجى المدلهمة ! !

وقد أثبت من عيون قصائده — الذى علق الاحسان فى مصائده — كل وثيق المبنى ، كريم المجنى ، جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى .

ومن ذلك فى وصف :

43 — الكاتب أبى عبد الله اللوشى (54)

شاعر مفلق ، وحسيب معرق . طبق مفاصل الكلام بحسام (89 : أ) لسانه ، وقلد نحور الملوك ما يزر بجواهر السلوك من احسانه ، ونشأ

---

(53) اشارة لطيفة ، ولفتة كريمة من المؤلف نحو استاذه ، واعتراف بالفضل فى صورة بلاغية رائعة .

(54) نسبة الى مدينة « لوشة » وهى بالاسبانية Loja تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وكانت احدى المدن الاندلسية الشهيرة ابان الحكم الاسلامى ، وقد استولى عليها الاسبان خلال حروب الاسترداد عام 891 هـ (1486 م) قبل غرناطة بست سنوات تقريبا ، وهى الآن مدينة اسبانية متوسطة المساحة ، يقع بعض عمرانها باعلا ربوة صخرية ، والبعض الآخر من المبانى فى منخفض الوادى ، وعلى مقربة منها بسيط فسيح من المزارع والحدائق يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها ، ويخترق (لوشة) نهر شنيل من الشمال ، ويقدر عدد

فى حجـر الدولة النصريـة (55) راضعا ثـدى نعمائها ، ومستظـلا بسمائها ، ومفضلا على مداحها ، وحائزا المعلى من قداحها . ولسلفه بخدمتها الاختصاص القديم ، والمزية والتقويم ، والمتات الى كريم ذمامه واستقر فى يد الراعى زمامه . ونطق بالشعر قبل أن ينطق بالشعـر خده ، فأتى منه ببحر لا يعرف الجزر مـده .

وأما الطريقة الهزلية فهو فارس مجالها ، وامام رجالها ، ورب رويتها وارتجالها وله همة تبذ من يباريها ، واخلاق تفتقر الى من يداريها .

طولب ــ فيما فرط ــ بالحضور مع الكتاب ، وملازمة خدمة الباب . فتجنـى على عادته ، وتوعد باسقاط مرتبته ، فلم يرغب فى اعادته . بل كبر

سكانها حاليا بحوالى 35 الف نسمة ، بينما كان سكانها ــ على عهد ابـن الخطيب المولود بها ــ يجاوز هذا العدد بكثير كما تقول الرواية الاسلامية . هذا، ولم يبق الان من الآثار الاسلامية بهذه المدينة سوى أطلال القصبة أو القلعة ، وبقايا بناء فى باطنها يرجح انها كانت مسجدا ، وهو عبارة عن ثلاثة عقود على على صفين ، ولكن لا تشتمل على أية نقوش او كتابات ، ويسمى هذا المكـان بالجب ALGIB ، وتقع الكاتدرائية على مقربة من القصبة وفوق المسجـد القديم ، استنادا الى التقليد العام للسياسة الاسبانية ، التى كانت تقيـم الكنيسة العظمى فى كل بلد مفتوح على انقاض المسجد الجامع ، ومن المعروف ان المسجد الجامع كان يقع وسط المدينة دائما ، ويدعم هذا ان الكاتدرائية تحتل اليوم وسط المدينة . وتجدر الاشارة اخيرا الى انه ــ حتى هذه اللحظة ــ لم يعثر عالم او مؤرخ على اى اثر يتعلق بحياة الوزير ابن الخطيب فى هذه المدينة، ــ وهى مسقط رأسه ــ أو حتى موقع بيته ، لطول العهد ومرور السنين الطوال . راجع . نفس المصدر السابق ص 58 ــ 59 .

(55) آخر دولة اسلامية تقلدت الحكم بالاندلس ، وتعرف ايضا بدولة بنى الاحمر ، كانت عاصمتها غرناطة ومؤسسها هو اول ملوكها الغالب بالله أمير المؤمنـين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن خميس ابن نصر بن قيس الخزرجـى الانصارى ، وذلك عام 1238 م ، وكان آخر ملوك هذه الدولة ابو عبد الله محمد الاخير ، حيث سقطت غرناطة على عهده بالتسليم فى يد الملكين الكاثوليكيـين فرناندو وايزابيلا فى 2 يناير 1492 م وهكذا انحسر المد الاسلامى عن اوربا منذ ذلك الحين ، بعد أن عمرت الدولة الاسلامية فى الاندلس زهاء ثمانية قرون راجع . المصدر السابق ص 19 ــ 21 .

على الخدمه أربعـا وسلم ، وما ارتمض لهـا ولا تألم . وعكف علـى اقامة أوده ، بانتجاع غلة بظاهر بلده ، باشرها بنفسه ، وجعلها معنى راحته ومغنى أنسه ، واتخذها وقاية لماء وجهه (89 . ب) الى أن يحل فى رمســـــه .

وهو مـن أهل الوفاء وحفظ العهد ، المشاركة فى الرخاء والجهـد ، والانقباض عن هذا الغرض والزهد . الى حسب تطرزت الدفاتر بآثاره وتضوع الحبر مسكا بأخبار أخباره . وشعر بلغ فى الاجادة الغاية ، ورفع للمحسنين الراية .

ومن ذلـك فى وصـف :

44 ـ أبـى بكر بـن الحكيـم

ماجد أقام رسم المجد بعد عفائه ، وأيقظ طرفه بعد اغفائه . محله محل ضيفان ، وقرع جفان . ومنهل وارد ، وفطنة ضال من العلاء وشارد . مثواه لا يخلو من قرى جزيل ، لقاصد أو نزيل . الى غير ذلك من التحلى بحلية الآداب ، والمبادرة الى اكتساب المعلومات والانتداب .

برز فى علم الحديث وروايته ، واجتنى ثمرة رحلة أبيه وهو فى حجر دايته ودون ـ الآن ـ الفهارس ، وأحيا الاثر الدارس . وارتقى مـن الكتابة الى المحل النبيه ، واستحق رتبتها من ميراث أبيه ، فأينع روحه وتأطر (56) ، وأرج (90 . أ) وتعطر .

وله شعر أنيق الحلية ، جاز فى نمط العلية (57) . وسيمر ـ فى أثنائـه ـ ما يدل على قدره ، ويشهد بسعة صدره .

---

56) تاطر . تثنى .

57) نمط العليـة . هيئة كبار القوم .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

45 ــ أبى جعفر بن صفوان المالقـــى

فارس البلاغة المعلم ، وحجة الادب التى تسلم . والبطل الـــذى لا ترد شباة يقده، ولا تحل مبرمات عقده . من جهبذ راض صعاب البيان وساسها ، وميز أنواعها وأجناسها ، وأحكم ضروب العبارة ونظـــم قياسها . فأحل الاسود عرينها والظباء كناسها . الى ذهن يأنى الغوامض فتنبلج ، ويقرع أبواب المعميات فيلج ، وهمة يود فرقد السماء وسهاها أن يبلغ منتهاها . أخذ من العلوم بنصيب ، ورمى فى أغراض التعاليـــم بسهم مصيب . فركض فى مجالها ، ورحل الى لقاء رجالها . ودعـــى لاول أمره ــ للكتابة لما اشتهرت براعته . فأجاب وامتثل ، وراش (58) سهام بيانه ونثل (59) .

ثم كر والدولة قد جفت (90 . ب) منها القواعد ، وأنجزت بادالتها المواعد . فاصطنعته الدولة الاسماعيلية (60) بجانبها ، وقلد ســـر كتابها ، والهيجاء تدور رحاها ، والامور لا يتبين منحاها . فلما وضعت

---

58) راش السهم . الصق به الريش .

59) نثل الكنانة . استخرج نبالها فنثرها .

60) نسبة الى السلطان أبى الوليد اسماعيل الاول بن فرج ابن نصر ابن الاحمر ، تولى السلطة فى غرناطة فى شوال 713 هـ (ابريل 1313 م) وفى عهده قويت حركة الجهاد بالاندلس ، اثر متابعة القشتاليين غزواتهم ضد مملكته ، حتى حقق نصرا ساحقا عليهم ، ولكن لم يمض على هذا الانتصار سوى فترة وجيزة ، حتى حتى قتل السلطان عقب عودته الى غرناطة بيد ابن عمه محمد بن اسماعيـــل صاحب الجزيرة ، قتله غدرا لاسباب شخصية فى 26 رجب 725 هـ (7 ديسمبر 1324 م) .

راجع . ابن الخطيب فى « الاحاطة » ج 1 ص 397 ، واللمحة البدرية ص 71 ــ 74 ثم ابن خلدون فى « العبر » ج 4 ص 172 ، ج 7 ص 250 . ط القاهـــرة 1284 هـ .

الحرب أوزارها ، وخفضت الامور زارها ، اثر الرجوع الى وطنه ، وأجر هداه فى ذلك فضل رسنه . وضلت الخدمة عنه فما نشدها ، وقصر نفسه على ما يقيم أودها . ولم يثن بعد الكـر عنانه ، ولا أعمل فى خدمة ملك بنانه . وكل ما صدر عنه — من نظم تروق أسرته ، وتتشوق اليه تيجان الملك وأسرته — فالتصوف مجاله ، وفى غرض رويته وارتجاله .

ومن ذلـك في وصـف :

46 — أبـى اسحاق ابن زكريـاء (61)

حامل لواء الخط ، والمنفرد بأحكام المشق والقط ، ومن تفتقر الى بنانه المخاطبات السلطانية افتقار المشروط الى الشرط . شديد التحفظ ، مقدرا للكلام خير التلفظ عظيم البشاشة والبر ، أمين على السر . (91 . أ) الى نفس جبلت على الخير ، وأخلاق حسنة السيرة رفيعة السير ، وحياء كثف جلبابه ، وسد فى وجه النية بابه . وكلف بالعلم وأوضاعه ، والتطلع على رقاعه . وبكفيه — فضلا لا تخبو ناره ، ولا يخفى مناره — ما خلد من كلام شيخ الجماعة ، وعلم الصناعة ، فقد أودعه بطون الاوراق ، وجمعه بعد الافتراق وأطلع نوره بادى الاشراق ، وألبس الايام به حللا أبهى من حلل صنعاء العراق .

والشعر — وان كان قليلا ما يعنى باجادة صناعته ، ومعاناة بضاعته — فحظه منه لطيف الهبوب ، حسن الاسلوب .

---

(61) هو الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن زكرياء ، من مشاهير قضـاة الاندلس ، عرف عنه فعل الخير والانقباض عن الناس . قرأ على أبيه ، ثم على الاستاذ أبى جعفر بن الزبير ، وأخذ بنسبتة عن أبى اسحاق الغافقى ، كما لازم أبا عبد الله التونسى صوفى العصر ونظيره فى هذا المذهب كأبى جعفر ابـن الزيات وأبى الطاهر بن صفوان وغيرهما ، وقد اشتغل بالكتابة فى الـدار السلطانية فترة من الزمن ، كانت ولادته فى الثالث والعشرين من شهر شعبان من عام 751 هـ .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

47 ـ أبى اسحاق بن الحـــاج

طلع شهابا ثاقبا ، وأصبح بشعره للشعرى مصاقبا (62) . فنجم وبرع وتمم المعانى واخترع . وكلف بالادب وهو غلام يافع ، وله من الحسن ــ لكل قلب ــ شافع . فأترع كاسه ، ونضد ريحانه واسه ، ونبه للصبوح ــ من بعد الكر ــ آناسه . ولم يزل دوحه يتأرج ، وعقائله شائعة تتبرج ، (91 : ب) حتى دعى للكتابة ، وترشح لتلك المثابة ، يطرز المعارف بمرقوم أقلامه ، ويشنف المسامع بدرر كلامـــه .

وأزمع الرحيل لما خاف على بضائعه الضياع ، فركب الفلك وشرع الشراع ، فحج وزار ، وشد للطواف الازار . ثم هفا الى المغرب وحوم ، وقفل قفول النسيم عن الروض بعدما تلوم ، فاستقر بعد (فـــى) ظلال الدولة الموحدية ، فحط بها على نار القرى ، وصمد عندها صباح السرى . ثم لم يلبث أن تنقل ، ووجد الجميم فعافه وتبقل . وهو الآن فى جملة كتاب المغرب ، حساما فى البلاغة دامى المضرب .

أخذ من العلوم بنصيب ، ورمى فى أغراض التعاليم بسهم مصيب .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

48 ـ أبى القاســم بن قطبـــة

سابق ركض فجلى ، وشارق طلع فتجلى ، وفاضل تحلى من الخلال البارعة بما تحلى . أتى من أدواته بالعجائب ، وأصبح صدرا فى الكتاب

---

62) الشعرى . الكوكب الذى يظهر فى الجوزاء ، ويبدو واضحا فى شدة الحر . والمصاقب . الملاصق المجاور .

وشمسا فى الكتائب . وكان أبوه ــ رحمه الله ــ بهذه البلاد (63) قطب أفلاكها ، وواسطة أسلاكها ، (92 : أ) وموتم أملاكها ، وصدر رجالها ، وولى ربات حجالها ، لصدق يقينه ، ومحافظته على أركان دينه . قد نثل بينه سهما سهما ، فخبره براعة وفهما ، وألفاه بينهم ماضيا شهما . . (64) منه نجيبا ، ودعاه الى الجهاد فألقى منه سميعا مجيبا . فصحب السرايا المغيرة ، وحضر من الوقائع الكبيرة والصغيرة ، وباشر الحرب وبأسها ونازع ذلك الشرب كأسها ، على مصاحبة البعوث ، وجوب السهول والوعوث ، فما رفض اليراعة للباتر ، ولا ترك الدفاتر للزمان الفاتر .

ولم يزل يبهر بأدواته ، وينتج البدائع بين قلمه وأدواته ، فان خط فاخر ببراعته للخط الى خلق سلس المقادة ، ونفس للمكارم منقادة . وأدب بديع المقاصد ، قاعد للمعانى بالمراصد . واستأثرت به الكتابة السلطانية فشعشع أكواسها وعاطاها ، وكان من تلك القلادة الرفيعة وسطاها . وله همة يحسدها فرقد الافق وثرياه ، وكتابة تنازع الروض طيب رباه .

ومن ذلك فى وصف :

49 ــ أبى بكر القرشى

قريع مجد وحسب ، متقدم ــ على تأخر زمانه ــ بذات ومنتسب ، من دوحة الشرف التى لا يذوى نضيرها ، ونبعة الديانة التى لا يغيض نميرها . اذا ذكر الصالحون . . (65) بعمرو ووالده ، وأكرم بطريفة وتالدة . أصبح لعبة الطرف ناسما ، فلا تراه الا ضاحكا باسما . الى

---

(63) الاشارة الى الاندلس .

(64) محو فى الاصل . وفى نسخة اخرى « قد مر » مكان المحو .

(65) محو فى الاصل . وفى نسخة اخرى « بحى هلا » مكان المحو .

حلاوة الضرائب والشمائل ، والادب المزرى بأزهار الخمائل . فمـا شئت من مداعبة تمتزج بالنفوس ، ومجاورة تزرى بالكؤوس ، وأدب عذب مذاقه ، اعترف به فرسان الكلام وحذاقه ، ومعان جاءت من السهولة بما تقتضيه أخلاقه ، وعفاف ضفت أذياله وطرف صفت جرياله .

ومن ذلـك فى وصـف :

50 ـ أبـى عبد الله بـن جـزى (66)

فرع محل بسق ، وثاقب طلع فجلى الغسق . وأديب قرع من الادب كل شاهق ، وحدث عما بين عاد وبينه وصدغاه فى خدى غلام مراهق . فند أقرانه وأترابه ، وأجال (93 : أ) فى ميدان الفنون غرانه . فأصبح نادرة أوانه ، وواسطة عقد اخوانه . فهو النبيه الذى قل له الشبيه ، والوجيه الذى قصر عن لحاقه الوجيه (67) . اذا ذكرت الغرائب قال : أنا لها ، ولـو تعلقت الغوامض بالثريا لنالهـا . الى خلق أعذب مـن

66) هو الكاتب أبو عبد الله بن جزى الكلبى ، ولد بغرناطة فى شوال 721 هـ (يناير 1321 هـ) ، وتولى منصب الكتابة فى ديوان سلطان غرناطة ابى الحجاج يوسف الاول (733 ـ 755 هـ) فترة من الوقت ، فحاز اعجاب معاصريه من الادباء ، وله مدائح فى هذا السلطان ومعاصره بالمغرب ابى الحسن المرينى . وقد ظل فى هذا المنصب حتى دس له أعداؤه عند أبى الحجاج ، الذى اقصاه بعد تعذيبه ، فشد رحاله عن الاندلس الى المغرب ، حيث التحق بديوان الكتابة فى البلاط المرينى لدى السلطان ابى عنان فارس ، حتى وافاه أجله فى 29 شوال 758 هـ اكتوبر 1356 م ، حيث دفن بفاس . ويعتبر ابن جزى ـ فوق صناعته الادبية ـ من العلماء الافذاذ ، بما شهر عنه فى علوم اللغة والتاريخ والحساب ، بشهادة الامير اسماعيل ابن الاحمر فى كتابة « نثير فرائد الجمان » .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » جـ 8 ص 40 ـ 42 ، ثم « يوسـف الاول ابن الاحمر » للمحقق ص 57 ، ونثير فرائد الجمان ، ص 292 ـ 307 (بيروت 1965) .

67) أراد بالوجيه الاول : سيد القوم ، وبالثانى : الفرس المبادر .

الضرب (68) ، وأسمى من بلوغ الارب ، ونبل لا تطيش نباله عـن غرض ، وذكاء يكشف كل مشكل مهما عرض .

وله أدب تود العقود محاسن شذوره ، وتقصر الصدور عن اعجازه . وصدوره ، وتتضاءل أهلة المعانى عند طلوع بـدوره .

ومن ذلـك فى وصـف :

51 ـ أبـى العـلا بن سماك

كاتب ماشق ، وأديب لريح الادب ناشق . ذو طبع سائل ، وكلف بالمسائل ، فلا يفتر عن تقييد ونقل ، وجلاء للفوائد وصقل . كتب مـع الحلبة فأحكم الخط وأتقنه ، وتاقى السجع وتلقنه . وأنشد الشعراء فأجرى بعير الخلاء ، وجعل دلوه فى الدلاء .

وله بيت معمور فى القديم (93 . ب) بصدور قضاة ، وسيوف فى الدين منتضاة . ولم يزل منتظما فى السلك ، ومرتسما فى كتاب الملك . الى أن عضه الدهر بنات خطوبه ، وقابله بعد البشاشة ــ بقطوبه ، فتأخرت ــ فى هذه الايام ــ جرايته ، ونكصت ــ على العقب ــ رايته .

وقد أثبت من شعره ما يشهد باجادته ، وينظمه فى فرسان الكلام وقـادتـه .

---

68) الضرب : بتشديد الضاد وفتحها مع الراء ، العسل الابيض .

ومن ذلــك فى وصـــف :

52 ــ محمد بن عبد الله بن الخطيب . رحمه الله

(المــؤلـــف)

ان خلطت العذب بالاجاج ، ونظمت مخيلتى بين در هذا التـــاج ، فلم أبغ تعريفا ولا تنبيها ، ولا اعتددت أن أقرظ نفسى وأزكيها . ولكنى بأوت نفسى (69) . عن مفارقة أبناء جنسى . فزاحمتهم فى أبواب هذه الآداب ، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو فى الكتاب .

ولما رأيت حللهم الموشية الطرر ، وحلاهم الواضحة (94. أ) الشياة والغرر ، نافستهم منافسة الاكفاء فى حلة تزين منكبى ، ورايـــة تتقدم موكبـــى . فجلبت فضلا حلانى بـــه رئيس الصناعة ، وامـــام الجماعة (70) ، فى بعض المنشورات السلطانية ، البسنى به الشرف ضافى الاردان ، وتركنى معلم ذلك الميدان . وهوى ظهر أثر اعتقاده الجميل فيه ، وفتح له أبواب القبول والتنويه ــ تشرع الى الغر الوجيه ، والقدر النبيه ، ورعى له وسائلها التى كرمت معانيها ، وعذبت مجانيها ، وتأسست على قواعد البلاغة مبانيها . وعرف ماله من الاصالة التى تميز فى اعيانها ، وبراعة الادب التى أحرز خصل رهانها ، وتلقى باليمين ـراية فرسانها .

ولما اختصه بالتقريب والايثار ، واعتمده بولايات ملكه الكبار ، وقربه فى بساط ملكه حماية وعناية ، وأطلع من آيات السعادة آيـــة ، وابتدأ بالخطط التى هى لغير غاية ــ رأى أن يستعمله فيما هو لديه

---

69) اراد الا ينسلـــخ عن قرنائـــــه .

70) يقصـــد بـــه « الشيخ الرئيس ابا الحسن على ابن الجباب » رئيس ديوان الانشاء فى البلاط النصرى ، والذى تقدمت الترجمة له من المؤلف .

أهم موقعا ، وأعز موضعا . (94 . ب) وأن يجمع له الكتابتين انشاء وديوانا ، ويطلع له وجوه الرعاية غرا حسانا . فحسبى ما خلد لى بذلك من مجد ، وقلدنى من فخر أشهر من نار على نجـد .

وأما شعرى ونثرى فقد أثبت منه ــ بعد سؤال الاغضا ، والنظر بعين الرضا ــ ما تعلق بالذكر ، واحتجب بحجاب الضمير من بنـات الفكـــــر .

ومن ذلـك فى وصـف :

53 ــ أبـى جعفر بن خاتمـة (71)

ناظم درر الالفاظ ، ومقلد جواهر الكلام نحور الرواة ولبات الحفاظ، ذو الادب الذى أضحت شوارده حلم النيام وسمر الايقاظ ، تمكن فـى

---

(71) هو الشيخ احمد بن على بن محمد ابو جعفر الانصارى . ولد بمدينة المرية عام 734 هـ (1333 م) وتضى شطرا هاما من حياته استاذا بمدرسة غرناطة، واشتغل بالتأليف ، فمن مؤلفاته رسالته « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » ولم تثنه مشاغله العامة عن قرض الشعر ، فمن قوله فى الحكم:

هـو الدهر لا يبقـى على عائذ بـه   فمـن شاء عيشـا يضطبر لنوائبـه
فمن لـم يصب فى نفسـه فمصابـه   بفـوت أمانيـه وفقـد حبائبـه

وتجدر الاشارة ــ فى هذه المناسبة ــ الى ان ابن الخطيب حينما فكر فى مغادرة الاندلس ذات مرة كتب الى صديقه « ابن خاتمة » رسالة رقيقـة ، يستعطفه بها أن يعدل عن هذه الفكرة ، ويقول له « انكم بهذه الجزيرة شمس افقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها وطراز ملكها ، وقلادة نحرها وفريد دهرها . وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على المعلوم والمخصوص . ثم أنتم مدار افلاكها ، وسر ساسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان احسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد ادارتها ، وبه قوام امارتها » فأجابه ابن الخطيب برسالة مؤثرة كذلك .

توفى « ابن خاتمة » عام 770 هـ (1369) ودفن بمسقط راسه المرية .

راجع : ابن الخطيب « الاحاطة » جـ 1 ص 247 ــ 267 ، تحقيق « عنان » ؟ ثم المقرى فى « ازهار الرياض » ص 265 ــ 270 ، حيث يورد كلا المؤلفين هاتين الرسالتين كاملتين .

...

بياض طرسه وسواد نقسه سحر اللحاظ . رفع بقطره راية هذا الشأن على وفور لبنه ، وجدع قمة البيان على سمو هضبته ، وفوق سهمه الى نحر الاحسان فاثبته فى لبته . فان أطال شأى الابطال (72) ، وكاثر المنسجم الهطال . وان أوجز فضح وأعجز ، فمن نسيب تهيج به الاشواق ، وتضيق عن زفراته (95 . أ) الاطواق . ودعابة تقلص ذيل الوقار ، وتزرى بأكواس العقار . الى انتماء للمعارف ، وجنوح الى ظلها الـوارف .

ولم تزل فضائله بتلك البلدة (73) تنفسح آمادها ، حتى تنافس فيه قوادها ، فاتخذوه كاتب أسرارهم ، وترجمان أخبارهم .

وقد أثبت من مقطوعات شعره ، ونفثات سحره ، ما يستأثر السامع ، ويقرط المسامع .

ومن ذلك فى وصف :

54 ـ أبى عبد الله بن بقى

مدير لاكواس البيان المعتق ، ولعوب بأطراف الكلام المشقق . انتحل ـ لاول أمره ـ الهزل من أصنافه ، وجنى ثمرة الابداع لحسن قطافه . ثم تجاوزه الى المغرب وتخطاه ، فأدار كأسه المترع وعاطاه . فأصبح لفنيه جامعا ، وفى فلكيه شهابا لامعا . وله ذكاء يطير شرره ، وادراك تتبلج غرره . وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض .

وعلى ذلاقه لسانه ، وانفساح أمد احسانه ، شديد الضنانة بشعره ، مغل لسعره . أجاب (95 : ب) أحد الادباء ممن خطب أدبه ، واستدعاه للمراجعة وندبه .

---

(72) شأى الابطال : سبقهم .
(73) المرية .

ومن ذلك فى وصف :

55 ــ أبى على حسن بن عبد السلام

فارس براعة بارعة ، ورب بديهة مسارعة . لاك الكلام وعلكه ، واستحق الاحسان وملكه ، وأدار على قطب الاجادة فلكه ، وساعده الدهر فتحرى طريق الشرف وسلكه . ولم يزل القدر يساعده ، والتدبير ينوء به ساعده ، حتى تجلت بالثراء حاله ، وعظم جاهه وماله . ولما تقلبت الفتنة بدولته ، وعجمت عود صولته ــ اثر الرحيل ، وفارق ربعه المحيل . واستقر بحضرة تونس يروم الوجهة الحجازية ، وقد تبرأ من قول الشاعر :

« وما أنا الا من غزية »

فأتاه بها حمامه ، وانقضت ــ دون أهله ــ أيامه .

وله أدب غض الجنا ، أنيق اللفظ والمعنى ، على قصر باعه ، وقلة انتجاعه .

ومن ذلك فى وصف :

56 ــ أبى الحسن بن الصباغ

اللسن العارف ، والناقد لجواهر المعانى كما تفعل بالسكة (96 . أ) الصيارف . والاديب المجيد ، الذى تحلى به العصر والجيد . ان أجال جياد براعته فضح فرسان المتهارق ، وأخجل بين بياض طرسه وسواد نفسه الطرر تحت المهارق . وان جلى أفكار أفكاره ، وأثار طير

البيان من أوكاره ــ سلب الرحيق المقدم (74) . ذو همة لا يرتد لها طرف ، وابابة لا يفل لها غرب ولا جرف .

وفى هذه الايام دعاه شيخ الغزاة (75) الى كتابة سره ، وقــام بواجب بره . وله أدب غض ، وزهر ــ على مجتنيه ــ مرفض .

---

(74) المقدم : بضم الميم وتشديد الدال ، الشبع حمرة .

(75) هو القائد يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الحق أبو زكريا . ولد بظاهر تلمسان عام 691 هـ (1288 م) يتصل نسبه بملوك بنى مرين ، ولى مشيخة الغزاة بالاندلس (قيادة الجيش) مرتين . أولاهما قبل هلاك الوزير ابن المحــروق فى عهد السلطان محمد الرابع ، والاخرى بعد أن نكب السلطان يوسف الاول أسرة القائد السابق الشيخ ابن ثابت ، وقبض على هذا الاخير ، ثم نفاه الــى افريقية (تونس) . ومن صفات الشيخ ابى زكريا شدة البأس والمرونة وعراقة النسب والدهاء والوعى للامور فى عمق ، والتفانــى فى العمل لصالح الاسلام والعرش النصرى ، رأس قبيلته ، والبحاثة عن الاخبار ، والخبير بالانساب ، وذو الدراية بالسن قومه ، يعى الكثير من الحكم والتاريخ ، عفيف لا تناله الالسن الا مدحا ، ولا ينازعه المنصب منافس .

كانت ولايته للقيادة ورئاسة القبيلة أواسط شهر صفر 727 هـ (9 يناير 1327 م) بادىء ذى بدء ، واستمر بها حتى 7 محرم 729 هـ (4 ديسمبر 1327 م) ، حيث بقى معزولا ، الى أن أعاد اليه رتبته كقائد السلطان يوسف الاول فى يوم 29 ربيع الاول 741 هـ (22 سبتمبر 1340 م) وظل فى منصبه حتى نهايــة عصر هذا السلطان ، ثم جدد له ولده الغنى بالله محمد الخامس القيادة ، وضاعف حظوته ، ونوه رتبتـــه .

وقد بقى هذا القائد فى منصبه حتى أوائل شهر رمضان 762 هـ (يونيه 1361 م) حيث فر الى قشتالة فى ظروف خاصة لاجئا سياسيا فترة من الوقت ، ثم عاد الى الاندلس متمتعا بسابق حظوته لدى الغنى بالله بعد استرداده لملكــه ، ولكن السلطان قبض عليه وعلى ابنه عثمان يوم 13 رمضان 764 هـ (1363 م) وسجنهما بقصبة « المنكب » ، ومن ثم نفاه الى افريقية ، ومنها التحق بفاس التى قضى بهــا أخيــرا .

راجع : ابن الخطيب فى « الاحاطة » نسخة جاييجوس بالاسكوريال 1673 لوحــة 339 ــ 400 مــن المخطوط .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

57 ـ أبــى عبد الله الطــراز

روضة أدب وظرف ، لما شئت من حسن وعرف . أشرقت ذكاء لفرط ذكائه ، وتضوعت آدابه تضوع الروض غب سمائه . الى حلاوة الخلائق والضرائب ، والشيم الحسنة والمعانى الغرائب . ترتاح الــى مجالسته المحاضر ، ويرف من أفنان فكاهته الزهر الناضر . فما شئت والمشاركة فى كثير من الفضائل .
من توقيع رفيع (التقدير) ، وتندر بالاصابة جدير ، ولطافة الشمائل

وله (96 . ب) نفس تطمح الى بلوغ المعالى ، وفكرة تحوط حلل البدائع فى الطراز العالى . وأدب كالروض باكرته السحائب ، وحملت أرجـــه الصبـــا والجنائـــب .

وقد أثبت من شعره كل عطر النسيم ، سافر عن المحيا الوسيم .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

58 ـ أبى جعفر بن داود الوادى آشى (76)

شيخ العمال المؤتمن على الجباية والمال ، المستوفى شروط الفضل على الكمال . تواضع ـ رحمه الله ـ مع العلو ، ولبس شعار السكون

---

(76) نسبة الى مدينة وادى آشـــى Guadex ، تقع شمال شرق غرناطـــة على نهر فردس ، وتبعد عن غرناطة بنحو 55 كيلومترا . اشتهرت فى العصر الاسلامى بمعادنها وخصوبتها وصناعاتها ، كما تمتاز بطقس ممتاز على مدار العام ، وهى المدينة التـــى نفى اليها آخر ملوك الاندلس قبل ان يرحل نهائيا الـــى المغـــرب .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص 192 ـ 193 ، نشر ليفـــى بروفنسال (ليدن 1938 م)

والهدو ، وبذل المجاملة للصديق والمسالمة للعــدو . ولازم مجالس الملوك بحيث يضر وينفع ، ويحط ويرفع . فما شاب بالاساءة احسانا ، ولا أعمل ــ فى غير المشاركة ــ لسانا . الى غير ذلك من الادب العطر النسيم ، السافر عن المحيا الوسيم . واشتهر بالوفاء اشتهار دارين بطيبها ، واياد بخطيبها (77) ، فكان حامل رايته ، ومحرز غايته .

ومضى لسبيله فقيدا أعم بفقد وخص ، وهاص أجنحة الحاجات وقـــص .

وله أدب يصيب شاكلة (97 . أ) الرمى بنباله ، ونظم تضحــى المعانى قنائص حبالــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

59 ــ أبـى عبد الله بن حسان

كاتب انشاء وديوان، وصدر حفل وايوان . وفارس براعة، وروض أدب وبراعة . يملى الرسائل لا يجف مدادها ، وينظم القصائد لا يعييه امتدادها ، ويحبر الرقاع ويوشيها ، ويصور المعانى وينشيها ، ويدبج برود البدائــع ويطرز حواشيها . الى خط تهيــم الالحاظ بالتمــاح سطوره (78) وتغــار الرياض بمسطوره .

---

77) هو قس بن ساعدة الايادى خطيب الجاهلية المعروف ، ومضرب المثل فــى البلاغة والحكم والمواعظ كان يؤمن بأن هناك الاها من وراء آلهة قومه ، واستشعر التوحيد فى مناسبات عرفتها المؤرخات عن فترة الجاهلية قبــل بـــزوغ فجـــر الاسلام .

78) لمح والنمح البصر : امتد الى الشىء ، ولمح الرجل الشىء ، أبصره بنظــر خفيف أو باختلاس النظر ، ولمح الشىء بالبصر : صوب بصره اليه ، وهـــو المراد فى النص .

وأبوة ومجادة ، وبيت أمطره الفضل وجاده . وأنجبت منه أبوة صاحب الاشغال ــ رحمه الله ــ خلفا سد مسده ، وتجاوز فى السر وماجده .

ولم تزل الاسماع تخطب بدائعه ، وأسواق الاسواق تغلى بضائعه ، حتى أصبح فردا فى أترابه ، وفذا فى أغرابه . وله نفس عذرية الشمائل ، ولسان هام بزهر الرياض وظلال الخمائل ، وطبع الى شيم الرصافة والجسر (79) مائل .

ومن ذلك فى وصف :

60 ــ أبى عبد الله بن مصادف الرندى (80)

(97 . ب) من شيوخ الطريقة العملية ، ومنتحلى الصناعة الادبية . كان ــ رحمه الله ــ مجموع ظرف ، ومسرح كل طرف ، من خط بارع ، وأدب ــ الى دواعى الاجادة ــ مسارع .

ولما صار أمر رندة ــ كلأها الله ــ عند اشتعال الحرب ، وتوالى الضرب ــ الى ملك المغرب (81) قلده أعمالها ، وجعل الى نظره مالها . ثم نقل الى بعض الولايات ببر العدوة وبها قضى نحبه ، وفارق صحبه ، بعد معاناة خطوب ومعاشرة صروف من الدهر وضروب .

وله أدب طاب وتأرج ، وعطف على رسوم الاجادة وعرج ، ومعان تتحلى بحلى العذارى وتتبرج .

---

79) يشير الى قول الشاعر :
عيون المهابين الرصافة والجسر　　جلبن الهوى من حيث ادرى ولا ادرى
ولابن الابار ايضا فى وصف « بلنسية » غناء بالرصافة والجسر .

80) نسبة الى مدينة رندة ، وقد سبقت الاشارة اليها فى مناسبة أخرى .

81) هو السلطان أبو الحسن على المرينى .

ومن ذلـك فى وصـف :

61 ـ أبى اسحاق بن جعفـر

شيخ توقيعة نادرة، وفكاهة واردة وصادرة . ونظم أنيق الديباجة، لطيف الزجاجة ، عطر النفحة عذب المجاجة . وظرف لا يذوى دوحه ، وأدب تأرج روحـه .

وقضى ـ رحمه الله ـ وقد خلف عقيما نجيبا ، وابقى من ابنه أبى جعفر مستمعا للفضل مجيبا . جاز فى الاحسان طلقة ، وحاسـن فلقـة . (98 . أ)

وقد أثبت من شعره ما يقر بوفور مادته واستقامة جادتـه .

ومن ذلـك فى وصـف :

62 ـ أبـى جعفـر

كاتب حساب ، ومنتسب للآداب أى انتساب . ان فكـر ورى فأعمل ، وان ابتدر وارتجل أولد البدائع وانتحل . وله منطق ان حاول الصعاب فيلينها ، ويتناول الغوامض فيبينها ، ويجلو كل ساحرة الالباب بروق جبينها . ويوسع المحاضرة امتاعا ، ويمد فيها خطوا وساعا .

وقد خطب من بيانه لهذا المجموع ، ولـم أقف منه عند نبـرة المسموع . لكنى اجترأت منه بما تيسر ، وقنعت بما تحضر ، واكتفيت برائقة الاثير ، وأقمت قليلة مقـام الكثيـر .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

63 ــ أبى الحسن البربرى المالقى

شاعر ينفق فى سعة ، وينطق وسط المجمعة . ومطبوع لا يتكلف ، ومجيد اذا نهض البلغاء لا يتخلف . عانى النظم وزمنه كمثله غلام ، ودهره تحية وسلام . ومدح فانتفع ، وشفع شعره للملوك فشفع . ولم يزل يتصرف فى الاعمال ، ويقابل الاحسان والاجمال (98 : ب) .
وقد أثبت من شعره كل محكم العقد ، شديد الوطأة على النقد .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

64 ــ أبى القاسم بن مقاتل المالقى

من حسناء الطريقة وصدورهـــا ، والمحاسن لترائبها العاطلـــة ونحـــورهـــا .

كان ــ رحمه الله ــ هضبة وقار وسكينة ، وذا مكانة فى الفضل مكينة . الى صدر سليم ومجد صميم . وخلق عظيم السهولة ، وسمت خليق بسن الكهولة . ولسان مغرى بالذكر وتقلب بين الجد والشكر .

والى ذلك ، فكانت له دعابة صائبة السهم ، ونادرة يتنافس فيها أولو الفهم . ومجالسة طيبة وفكاهة غمامتها صيبة .

واستعمل فى الولايات النبيهـــة (82) ، فحمدت سيرته وحســـن أثره ، وكرم خيره وخبره . وأنجب عقبا جاريا على سننه ، متخلقا من الســـرو (83) بأحسنـــــه .

---

(82) الولايـــات النبيهة : الاقاليم الشهيـــرة .
(83) الســـرو : بتشديد السين مع الكسر وسكون الراء ، وهو السخاء والمروءة .

وكان له أدب غض الجنا ، طيب اللفظ والمعنى . ومقطوعة حسنة المقاطع ، سافرة عن الحسن الساطع .

ومن ذلــك فى وصـــف :

65 — أبى زيد عبد الرحمن المينشتى

من شيوخ طريقة العمـــل ، المتغلبين من أحوالها بين الصحـــو والثمل ، (99 . م) المتعللين برسومها حين اختلط المرعى بالهمل .

وهو ناظم أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز . نظم بها مختصر السيرة ، فى الالفاظ اليسيرة . ونظم جزءا من الزجر والفـــال ، نبـــه به تلك الطريقـــة بعد الاغفـــال .

ومن ذلــك فى وصـــف :

66 — أبى جعفر ، المعروف بالبقيل — من أهل المرية

بقية صالحة ، وغرة فى الزمن واضحة . أرخ وقيد ، وأحكم بناء العبارة وشيد . ورقم الرسائل البدائع ، وحقق ببلـــده الاخبار وكتب الوقائع . فمجالسه عظيمة الامتاع ، ومحاضرته مقرطة الاسماع .

وله شعر جزل ، لا ينتكب لمعانيه غزل وألفاظ صقيلة ، ومعان تتبرج تبرج العقيلة . وأغراض لا تطيش نبال نبلها ، ولا تطمس لاحبـــة سبلهـــــا .

وقد أثبت منها ما يشهد باجادته ، ويدل على كرم مجادته .

ومن ذلــك فى وصـــف :

67 — أبى جعفر بن جعفر — من أهل مالقة

(99 . ب) أديب مجيد ، وبطل فى الحساب نجيد . تقدم فى الطريقة

العملية وبرز ، وطرر طروسها وطرز ، ونفذ فأبرز . وعانى النظـم فأجاده ، واستقى غمام الادب فجاده ، وسلك الالفاظ وخلصها ، واستطرد المعانى واقتنصها ، ومرت به النادرة فاغتنم فرصها وله أخلاق رقيقة ، ونفس لكل عذرى شقيقـــة .

وقد أثبت من شعره ما وقـــع فى يدى وارتسم فى خلدى .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

68 ــ أبى على حسن بن الخطيب أبى الحسن القيجاطى (84)

حسنى المذهب ، وهائم بكل عذار موشى وخد مذهب . نشأ بين يدى أبيه ــ رحمه الله ــ وحلقة درسه مكنس آرام ، ومثار صبابة وغرام ، ومطلع الشموس والاهلة من ابناء الجلة فركض فى الكلف ملء عنانه ، ومكن الجنون السود من سويداء جنانه ، وعذب عنده تعذيبه ، حتى اشتهر غزله ونسيبه .

ولما نصب عود تلك الشبيبة ، وصوح نبت تلك الرياض العجيبة ــ تعلق بالخدمة (100 . م) فانتظم فى أهلها ، وسار فى حزنها وسهلها . وظهرت عليه نبعات عبر لها اللجة ، وقطع الحجة ، واستقر ببجاية ، فارتفد وارتفق ، وعرض شعره فغلا سعره ونفق . ثم ارتحل ــ على هذا العهد ــ الى أم تلك المملكة (85) ، والقائمة بحساب تلك البلاد مقام الفذلكـــة . فاستند الى بابها ، وارتسم فى سلك كتابها .

وقد أثبت من شعره المطبوع ، أيام مقامه بهذه الربوع .

---

84) انظر ترجمة هذا الاديب فى مجلة الثقافة المغربية (العدد الاول ــ السنة الثالثة عشرة ــ شعبان 1389 هـ) .

85) يقصـــد بها غرناطـــة العاصمـــة .

ومن ذلــك فى وصــف :

69 ـــ ابى محمد ابن المرابع (86)
من أهل بليــش (87)

طويل القوادم والخوافى ، كلف ـــ على كبر سنه ـــ بعقائل القوافى . شاب فى الادب وشب ونشق ريح البيان لما هب . فجاور رقيقه وجزله ، وأجاد جده واحكم هزله . فان مدح صدح ، وان وصف انصف ، وان

---

86) هو الشاعر الغرناطى ابو محمد عبد الله بن عبد الله الازدى ، المعروف بابن المرابع من مدينة بليش مالقة ، وقد تناوله ابن الخطيب فى احاطته ، حيث ترجم له بافاضة ، واورد الرسائل والقصائد التى تبودلت بينهما يومئذ ، وهو من كتاب المقامة المشهورين فى ذلك العصر ، وقد نقل له المؤلف مقامة ساسانية، عرفت فيما بعد بمقامة العيد ، كان قد كتبها الى حاكم مالقة الرئيس « ابــى سعيد فرج بن نصر » بغرض الحصول على اضحية العيد . وتتضمن هذه المقامة قصة قصيرة بطلها رجل متسول من بنى ساسان بارع الحيلة ، قد صمم العزم يوما على ان يحصل على كبش من الحاكم ، وبذل فى سبيل مطلبه هذا جهودا شتى ومضنية ، الامر الذى يفسر لنا هنا حياة الكد التى صادفها المترجم لــه من حياته ، كل هذا فى أسلوب طريف ، زانه السجع ، وتخللته الفكاهة . توفى هذا الشاعر بوباء الطاعون الجارف الذى اجتاح منطقة البحر المتوسط وقتئذ ، ودفن ببلدته أواخر عام 750 هـ .
راجع : ابن الخطيب فى مخطوطة « الاحاطة » نسخة الاسكوريال 1673 لوحة 227 ـــ 230 ، وكذا المقرى فى « نفح الطيب » ج 6 ص 315 ـــ 136 ج 8 ص 209 ـــ 210 .

87) بلدة متوسطة تقع قرب مالقة (على مسافة 34 كلم) ، وتنسب اليها ، وتوجد اخرى تسمى « بليش الشقراء » ، وهى قرب « لورقة » كما ان هناك اخــرى قريبة منها تسمى « بليش البيضاء » ، وبهذه المناسبة نذكر أن ابن الخطيب وصف الثانية فى كتابه « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهــد والديــار » بأنهــا ثغــر مجاور لحدود مدينة لورقة التى كان العدو يومئذ قد استولى عليها . واما بليش مالقة فقد وصفها المؤلف ايضا فى نفس المعيار . واما الثالثة فلم ترد لديه ، فربما استحدثت من بعــــــد .

عصف قصف . وان انشأ دون ، وتقلب فى أفانين البلاغة وتلون — أفسد مـــا شـــاء وكـــون .

فهو شيخ الطريقة الادبية وفتاها ، وخطيب محافلها (100 . ب) كلما أتاها . لا يتوقف عليه من أغراضها غرض ، ولا يضيع لديه منهـــا مفترض . ولم تزل بروقه تتألق ومعانيه بأذيال الاحسان تتعلق — حتى برز فى أبطال الكلام وفرسانه ، وذعرت القلوب لسطوة لسانه . وألقت اليه الصناعة زمامها ، ووقفت عليه أحكامها . فشعشع مداحها ونبـــه خدامها . وأطلع نجومها ، وأرسل رجومها . وعبر البحر — لهذا العهد — منتجعا بشعره ، ومنفقا — فى سوق الكساد — من سعره . فأبرق وأرعد ، وحذر وتوعد . وبلغ جهد امكانه فى التعريف بمكانه ، فما حرك ولا هز ، وان ذل فى طلب الرفد فقد عز .

وما برح أن رجع الى وطنه الذى اعتاده ، رجوع الحديث الـــى قتـــــــــاده .

وقد أثبت من نزعاته وبعض مخترعاته ما يدل على سعة باعه ، ونهضة ذراعه . وألمحت بشىء من سبب رحلته واغترابه ، وعـــودة مرهفه الـــى قرابـــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

70 — ابى عبد الله المتأهل المعروف بعماتى مـــن اهـــل وادى آش

(101 : م) ناظم أبيات ، وموضح غرر وشيات ، وصاحب توقيعات واشارات ، ذوات اشارات . اشتهر ببلده اشتهار الشيب بالمفارق، وتألق

بأفقه تالق البارق . دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه (88) بعد انتثار سلكه ، وخروج الحضرة من ملكه ، واستقراره بوادى آش مروع البال ، متعللا بقصيات الآمال .

ومن ذلك فى وصف :

71 ـ أبى المؤلف ـ رحمه الله (89)

ان طال الكلام ، وجمحت الاقلام ـ كنت كما قيل . ومادح نفسه

88) يقصد المؤلف بالملك المخلوع السلطان محمد الخامس الغنى بالله ثامن ملوك بنى الاحمر فقد اندلعت الثورة ضده فى غرناطة ، تزعمها اخوه الامير اسماعيل ، وذلك فى رمضان من عام 760 هـ (1359 م) فلجأ السلطان المخلوع الى وادى آش ومعه وزيره ابن الخطيب ، ومنها التحق بفاس لاجئا سياسيا لدى بنى مرين فى 6 محرم 761 هـ (8 ديسمبر 1359 م) ثم استرد الغنى بالله ملكه عام 762 هـ (1361 م) وبقى متربعا على العرش حتى توفى عام 793 هـ (1392 م) .
راجع : الاحاطة ، مخطوطة الاسكوريال 1673 لوحة 182 ، واللمحة البدرية ص 101 ، ثم « نزهة البصائر والابصار » للقاضى النباهى ، حيث حقق الجزء الخاص بدولة بنى نصر المستشرق الاسبانى « اميليو لافونتى الكانترا » ص 63 طبعة مدريد 1859 م .

89) أخبر عنه المؤلف فى « الاحاطة » بانه ولد فى غرناطة عام 672 هـ (1273 م) واستقر بها حينا ، ثم عاد الى « لوشة » مقر الاسرة ، ثم رجع الى غرناطة ، حيث التحق بخدمة السلطان ابى الوليد اسماعيل الاول النصرى ، فهو بهذا « غرناطى الولادة والاستيطان ، لوشى الاصل ، طليطلية قرطبيــة » ، ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان عبد الله محمد الرابع التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته ايضا ، ثم بديوان أخيه السلطان ابى الحجاج يوسف الاول ، حيث عاصر الرئيس ابن الجياب الذى منحه لقب الوزارة .
ويعتبر المترجم له من أكابر العلماء والخاصة ، ممن اصطفاهم السلطان أبو الوليد ليعمر بهم بلاطه، ضمن نخبة اخرى من الرؤساء والعلماء، الذين اشرفوا على تربية أبناء السلطان ، فغرسوا فيهم بذور العلم والادب ، وامدوهم بخبراتهم وتجاربهم ، كما تولوا لهم تسيير الشؤون بعد أبيهم .
توفى والد ابن الخطيب هذا قتيلا مع ولده الاكبر عبد الله ـ اخى لسان الدين ـ فى معركة طريف الشهيرة ، فى جمادى الاول 741 هـ (اكتوبر 1340 م) .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » جـ 6 ص 319 وما بعدها ، جـ 8 ص 40 وما بعدها .

يقريها السلام ، وان أحجمت ـ فما استرسلت فى الثنا ولا ألجمت ـ أضعت الحقوق ، وقاربت العقوق . هذا وله جرت طير البلاغة من أوكاره ، وحييته بعيون البيان وابكاره ـ لما قضيت بعد ، ولا قلت الا بالذى علمت سعد (90) ، فقد كان ذمر حزم (91) ورجل رجاء وازم (92) .

كان ببلده قطبه الذى عليه المدار ، وزعيمه الذى له الايراد والاصدار . وله المقام (101 . ب) النصرى وسائل قربى ، ومتات أناف أو أربى . ولما حل الملك الاسماعيلى (93) بذلك القطر ، ولاح بأفقه لياح هلال الفطر ـ نزع الى فريقه ، وجعل تلك الايالة قرى طريقه . وصحب ركابه الى قرارة ملكه ، ومحط فلكه . فقربه وادناه ، وشيد له العز وبناه . ولم تزل سماؤه تجوده ، وروضه يروضه جوده . واصطنعه خلفه من بعده ، الى أن دعاه الاجل لوعده . ففقدته بكاينة طريف (94) ، جبر الله عثارها ، وعجل آثارها .

---

(90) مثل عربى يضرب عند اسناد الاخبار الى مصادرها الوثيقة .

(91) رجل ذمر : بفتح فسكون اى : شجاع داهية .

(92) رجل أزم . بفتح فسكون اى : يبرز فى الازمات .

(93) هو السلطان أبو الوليد اسماعيل النصرى ، خامس ملوك بنى الاحمر . تولى السلطة فى شوال من عام 713 هـ (أبريل 1313 م) ، وقتل بيد ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة لاسباب شخصية فى اواخر رجب 725 هـ (يونيه 1325 م) ، ويذكر المؤرخون عن هذا السلطان انه شدد النكير على الخارجين عن تقاليد الاسلام ، فمن ذلك تحريمه على النساء الجلوس على الموائد مع الرجال فى الحفلات العامة ، ومنعه للمسكرات البتة ، الى غير ذلك .

(94) تعرف هذه المعركة فى الرواية الاسلامية بـ « موقعة طريف » وسماها ابن الخطيب فى مواطن أخرى بـ « الوقيعة العظمى » ، وتعرف فى الرواية الاسبانية بـ « معركة سالادو » ، وقد حدثت بين الاسبان والمتطوعين من نصارى أوربا من جهة ، وبين المغاربة والاندلسيين من جهة أخرى حيث رابط الفريقان عند نهر سالادو قرب طريف ، وتمخض الاشتباك المحتوم عن فوز الاسبان بقيادة ملكهم الفونسو السادس ، وهزم المغاربة ، فعاد السلطان أبو الحسن المرينى الى المغرب ، كما قفل السلطان يوسف الاول أبو الحجاج راجعا الى عاصمة ملكه غرناطة ، ومحص الله المسلمين .

حدث خطيب الجامع الاعظم ، وهو ما هو من وفور العقل ، وصحة النقل ، قال « مررت بأبيك بعدما تمت الكسرة ، وخذلت تلك الاسرة ، وقد كفا بأخيك الطرف ، وعرض عليه الحمام الصرف . والشيخ لم تزل قدمه ، ولا راعه عدمه . ولما يئس من الخلاص وطلابه ، صرفنى وقال : أنا أولى به . فقضى سعيدا شهيدا ، لم يستفزه المقول ولم يثنه ، ولا ارتضى عار الفرار عن ابنه » .

وكان له فى الادب فريضة ، وفى النادرة العذبة منادح عريضة ، مع انتحاله (102 . م) واشتغاله بحاله .

ومن ذلك فى وصف :

72 — أبى بكر البلوى — من أهل المرية

بحر لرسوم المكارم ، ذو هزة للفضائل كهزة الصارم . كان — رحمه الله — ببلده فى الاحسان ، بمنزلة العين من جسد الانسان ، والنطق من اللسان ، والبشاشة من الصور الحسان . ان ضل السماح فبيته مأواه ، أوضل الضيف فهو أبو مثواه . الى نفس آخذة بأقاصى الكمال ، وشمائل الطف من أنفاس الصبا والشمال ، وأدب أشهى الى القلوب من الآمال .

قدم على الحضرة لاول الدولة ، رداء حق الطاعة ، والانتظام فى الجماعة .

وعلى الاثر سقطت كل من طريف والجزيرة الخضراء وقلعة بنى سعيد فى قبضة النصارى ، وكاد الاسبان يستولون على جبل طارق . وتجدر الاشارة الى ان هذه المعركة كانت فاصلة فى تاريخ الجهاد المرينى بالاندلس ، بحيث لم يتسن للمغاربة الجواز الى هذه البلاد فى صورة كتائب نظامية او الاشتباك فى معارك بعدئذ مع النصارى ، وكانت هذه الموقعة فى جمادى الاولى عام 741 هـ (اكتوبر 1340 م) .

راجع : يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة — للمحقق ص 134 — 140 نشر الدار القومية للتوزيع 1969 بالقاهرة .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

73 ـ أبـــى عبد اللـــه الســـراج

طبيب ماهر ، وروض علم تفتحت فيه للفنون أزاهر . درج مـــن الشظف الى السعة وتحلى بحلية العلم فرفعه . فبلغ الغاية التى لطف محلها ، وفاء عليه ظلها ، وتغلبت عليه الايام فاعتورته صروفها (95) وتكدر عنده معروفها ، (102 . ب) لما ذكرته فى كتاب طرفة العصر ، فى اخبار دول بنى نصر . ثم تداركت صلاح حاله ، ومتعته بطيب القرار بعد ارتحاله . فاستقرت داره ، واستقام ـ على قطب العناية ـ مـــــــدارُه .

وكان ـ رحمه الله ـ كثير الدعابة ، وما شانه ذلك ولا عابه . وله نظـم ينخـــرط فى سلك الانطباع ، ويخبر بطول الباع .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

74 ـ أبى زكريا يحيى بن هذيل التجيبى (96)

درة بين الناس مغفلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة ، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة . أبرع من رتع التعاليم وعلمها ، وركض فى الالواح قلمها ، واتقن من صور الهيئة ومثلها ، وأسس قواعد البراهين بين الناس وأثلها (97) . وأعرف من زاول شكاية ، ودفع عن جســـد نكاية . الى غير ذلك من المشاركة فى العلوم ، والوصول من المجهول الى

---

95) اعتورتـــه صروفهـــا : تداولت عليه احداثهـــا .

96) هو الشيخ ابو زكرياء يحيى بن هذيل ، من اشهر العلماء المشتغلين بالطب والفلسفة والعلوم والرياضيات ، ويعرف لذلك بحكيم غرناطة وفيلسوفها ، وهو احد شيوخ لسان الدين ابن الخطيب . توفى ـ رحمه الله ـ عام 753 هـ (1355 م) .

97) اثلها : بفتح الهمزة وتشديد الثاء مع الفتح بمعنى : اصلهـــا .

المعلوم ، والمحاضرة المستقرة للحلوم (98) ، والدعابة التى ما خالـع العذار فيها بالمنوم . فما شئت من نفس عذبة الشيم ، وأخلاق كالزهر من بعد الديـم (99) ومحاضرة تتحف المجالس (103 . م) والمحاضر ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضـر .

وله أدب ذهب فى الاجادة كل مذهب ، وارتدى من البلاغة بكـل رداء مذهب . ومعان تراودها الخواطر فلا تصد ، وتحييها النفوس فـلا ترد . والادب نقطة من حوضه ، وزهرة من أزهار روضه .

وسيمر له ـ فى هذا الديوان ـ ما يبهر العقول ، ويحاسن بروائه ورائق بهائه الفرنـد المصقول .

75 ـ أبـى عمرو بن عبـاد
مـن أهـل رنـدة (100)

صوفى محقق ، ومريد عن صبوح المحبة مرقق . كان ببلده ـ رحمه الله ـ عينا من أعيانها ، وقريع بيت من بيون احسانها . شام للغرب بارقا ، وأصبح لدنياه مفارقا ، فنزح عن بلاده ، وخرج عن طريفه وتلاده ، وشمر لمقارعة الهوى وجلاده . وخاض بحار تلك الاهوال ، حتى صار معدودا فى أهل الاحوال . وظهرت عليه سمات الحضرة ، وسطعت لـه أنوار الكرامة الالاهية . ولم يزل يعبر عن وجده ، ويكنى بحاجره ونجده ، حتى حفظت (103 . ب) أقواله ، واشتهرت أحواله .

98) الحلوم بضم الحاء : العقـول .

99) الديـم . بتشديد الدال مع الكسر بمعنى : قطرات المطر .

000) ما زالت المدينة تحمل نفس الاسم بالاسبانية Ronda تقع غرب مالقة ، وقد كانت من أهم القواعد الاندلسية .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

76 ـــ أبى الوليد بن هانى ـــ من أهل غرناطة

شاعر ينحت من طود ، وماطر صاب من الكلام بجود (101) . عدل عن اللفظ القريب الحوشى الغريب . فاذا أجهد طبعه ، ووصف حيه وربعه ، وكيف ظعن القطان ، وتغيرت الاوطان ـــ قلت : حجازيا فصيحا ؛ أو تميميا ينشق للبيان ريحا ، ونجديا شكـــا بثا وتبريحا .

نشأ ببلده غرناطة مطلع نور حسبه الباهر ، وروضة بيته الانيق الازاهر . فشأى حلبة الطلب ، وفاز بالغلب ، واجتهد وعكف ، واستمطر وابل العلم لما وكف ، حتى جلى من المشكلات كل حالك ، واستظهـــر موطأ مالك . ثم رام السفارة بعزمه ، وخاض القفار بجرفه وحزمه . واستقر بعد اعتساف المجاهل ، ومزاحمة المناهل ، وخوض العرار ، والبشام بحماة الشام (102) واتخذها دارا ، وارتضاها لفضله مدارا .

---

101) جـــود . بفتـــح فسكون ، مصدره جاد ، بمعنى : النيـــل .

102) حمـــاة : مدينة لها شهرتها واصالتها فى سوريا ، تقع على نهر العاصى ، احدى المراكز التجارية، تتبعها كمحافظة من المحافظات سلمية ومصياف، ويبلغ تعداد سكانها حوالى 420.000 نسمة ، ويرجع تاريخها الى القرن الالـــف الخامس قبل الميلاد تقريبا ، احتلها الميتاليون عام 1.550 ق. م. ، ثم الآراميون نحو 1.100 ، ثم دمرها الحيثيون ثم الآشوريونعام 720 ق. م. ، ولكن الحياة عادت اليها فى عصر السلوقيين ، الذين دعوها « ابيفانيا » ، حتى احتلها الرومان عام 64 ق. م. ، وتلاهم البيزنطيون ، واخيرا دخلت التاريخ العربى عندما فتحها القائد ابو عبيدة عـــام 639 م .

هذا ، وتشتهر حماة بنواعيرها ، ومن آثارها المعروفة الجامع الكبير ، وجامع ابى الفـــــداء .

راجع : د. مصطفى زياده واخرين فى « تاريخ العالم العربى وحضارتـــــه » ص 238 وما بعدهـــا . . .

ومن ذلــك فى وصــف ·

77 ـ أبى عبد الله الكفيف ـ من أهل مالقة

ضرير زاد نور بصره نور قلبه فاجتمعا ، وكفيف سارت الامثال بذكره فصدق مرأى منه مستمعا . صادق اللهجة ، سلك سبيــل الفضل وانتهج نهجه . ادهن من رواد المشكلات وافترعها ، وصادم الغوامض فصرعها . وله فى علم اللسان قدم راسخة ، وفى أحكام المعانى آيـــة ناسخة . وكان معرى عصره ووارث علمه الذى يعجز عن حصره . ولــه فى العلوم العقلية ذوق ، والى تلك الفنون شوق ، نسبته الالســن ، واستقبح منه ما يحسن . ونظمه دون قدره ، ومعانيه تكثر عن نفثات صـــــدره .

ومن ذلــك فى وصــف :

78 ـ الاديب الحاج الرحال ابى اسحاق الساحلى

جواب الآفاق ، ومحالف الرفاق ، ومنفق سعر الشعر كل النفاق . رفع ببلده راية للادب لا تحجم وأصبح نسيج (104 . ب) وحده فيما يسدى ويلجم . فان نسب جرى قلم ما كتب ، وان مدح وقدح مــن أنوار فتنته ما قدح ـ حرك الجامد ، ونظم الجمان للمحامد . وان وصف أورثا ، غبر فى وجوه السوابق وحثــا .

ولما أنف لكساد سوقه وضياع حتوقه ـ أخذ بالعزم ، وأدخــل على تعلاته عامل الجزم . ولم يزل يسقط على الدول سقوط الغيث ، ويحتل كناس الظبى وغاب الليث . ويركض النجائب ، ويتتبع العجائب ، حتى استضاف بمصر الكرام ، وشاهد البرابى والاهرام ، ورمـــى

بعزمته الشام ، فاحتل ثغوره المحوطة ، ودخل دمشق وتفيأ الغوطة (103) ثم عاجلها بالفراق ، وتوجه الى العراق ، فحيا بالسلام مدينة السلام (104) وأورد بالرافدين (105) رواحله ، ورأى اليمن وسواحله .

ثم عدل الى الحقيقة عن المجاز ، وتوجه الى مثابة الحجاز ، فاستلم الركن والحجر ، وزار الترب الكريم لما صدر . وتعرف فى مجتمع الوفود بملك السود ، فغمره بارفاده ، واستصحبه الى بلاده . فاستقر بأول اقاليم الارض ، واقصى ما يعمر من هذا العرض . فحل بها (105 . أ) محل الخمر فى القار ، والنور فى سواد الابصار . وتقيد بالاحسان ، وان كان غريب الوجه واليد واللسان .

وقد أثبت من شعره ما يشهد بجلالة آدابه ، وتعلق الاحسان بأهدابه .

ومن ذلك فى وصف :

79 ــ القائد أبى جعفر أحمد بن خير .

قائد مليح الشيبة ، ممتزج المباسطة بالهيبة . يجمع بين الدعابة والوقار ، ويدير من الفكاهة كؤوسا تزرى بكريم العقار . وله أصالة قامت على العلم أركانها . واشتهر بحمص ــ أعادها الله ــ مكانها ، ووسائل الى السلف الكريم عظم ذمامها ، وارتضع أخلافها بين القيادة وأعمالها .

---

103) الغوطة : هى مجموعة البساتين المحيطة بدمشق ، وترتوى من نهر بردى ، تشتهر بوفرة وجودة مشمشها ، وكانت هذه الجنات قديما سكنا للغساسنة .

104) مدينة السلام : بغداد .

105) الرافدان : دجلة والفرات .

تناول خطة المدينة فأجراها ، وراش نبل الاحكام وبراها ، وبشر بشار أولى الفساد وفراها ، وفرق بين الجفون وكراها . فكم عاشق انتجز للوصول ميعادا ، وارتقب للسعد اسعادا . وظفر بمثير غرامه ، وموقد ضرامه . فى مجلس تجلت فيه عروس الكناس ، على غرس الورد والآس وعند سجود الابريق ، ومزج المدامة بالريق — وثب ابن خير هذا وثوب الليث ، وسقط عليه سقوط العيث ، لا سقوط الغيث ، فراع غزال ذلك الكناس . حتى ذعرت القلوب لسطوته ، وتشوفت الآذان الى احساس خطوته . كل ذلك بعدل ميزان قائم ، وجزالة لا يثنيها فى الحق لائم . وبسالة تشهد المواقع بمضائها ، وتثنى عليها السيوف عند انتضائها .

واصطنعه المقام اليوسفى (106) — اعلاه الله وارتضاه — للامانة العظمى ، وقلده حفظ أبواب معقله الاسمى . فأعطى القوس باريا ، وقلد الخطة حساما فاريا . وهو لطيف المحل لديه ، حظى بين يديه ، يستظرف نادرته العذبة ، ويبدى له القبول والمحبة .

وله أدب عذب الجانب ، سهل المذانب ، لا يزال ينفث بضربه ، ويستقر عند نظمه عوائد طربه .

ومن ذلك فى وصف :

80 — أبى جعفر بن غفرون — من الجند

(106 : أ) نير ما طلع حتى أفل ، وماجد فى حلل الفضل رفل . ألطف الناس فى معاشرة الاكفاء ، وثانى . . . ابن عاديا فى الوفاء

106) المقام اليوسفى : نسبة الى يوسف الاول ابو الحجاج ابن الاحمر سلطان غرناطة وسابع ملوك بنى نصر (733 — 755 هـ = 1333 — 1354 م) .

الى حلم لا يضيق له صدر ، وعهد لا يتطرق لحماه نكث ولا غدر . ونفس عظيمة النفاسة ، واخلاق مولعة بذكر الحماســة .

توجه مع الحصة الى حراسة ثغر بيرة (107) وقد اشتعلت نيرانه ، وكلب جيرانه وكانت من المسلمين جولة فى بعض المواقف ، ميز الله بهــا الخاص من الزائف . ولم يرض حاجبنا ــ رحمه الله ــ على الفرار أمام الكفار ، ولم يزل يقدم اقدام الغضنفر ، ويقيم هامته مقام المغفر (108) . فقضى شهيدا مقداما ، وشرب للحمام كأسا كانت لها السعادة مداما .

ولم أظفر من كلامه الا بنزر ، ولا أحطت من مده الا على جزر .

ومن ذلــك فى وصــف :

81 ــ أبى جعفر الروية ــ من أهل بليش

ناظم الفقر الشاردة ، ومنتضى المعانى الصادرة والواردة ، وصاحب

---

107) بيــرة : تدعى الآن فى الاسبانية Vera تقع شمال شرق غرناطة ، وهى بلدة مرتفعة تشرف على ساحل البحر المتوسط ، مما اكسبها اهمية بحرية حربيــــــة .

وصفها ابن الخطيب فى « معيار الاختيار » مشيرا الى مجاورتها للنصارى ، وما كان من تعرضها لمناوشاتهم ، وانتهاك حرماتها بين حين وآخر ، حين يقول « . . الا انها قليلة المطر مقيمة على الخطر ، مثلومة الاعراض والاسوار ، مهطعة لداعى البوار» هذا بالاضافة الى فتنتها بالداخل «قليلة الوجوه والصدور، كبيرة المشاجرة والشرور ، برها انذر بن برها فى المعتمر والبور ، وزهد اهلها فى الصلاة شائع فى الجمهور » .

108) المغفر والمغفرة : جمع مغافر ، عبارة عن زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة لاتقــاء الضربــات .

قريحة ملتهبة الوقود ، وبديهية منتظمة العقود ، وبيت ينمى الى مجد ، وأصالة أطيب من عرار نجد (109) .

نشأ ببلده (106 . ب) بليش قرارة ميلاده ، مقتصرا على انتجاع تلاده . صان بذلك وجهه عن اراقة مائه ، وهتك حجاب حيائه .

ولم أظفر من شعره ـ على استرساله ـ الا بقوله يهنى السلطان ـ أيده الله ـ بأحد أولاده .

ومن ذلـك فى وصـف :

82 ـ أبى عبد الله العبدونى المالقى

أديب نار ذكائه يتوقد ، وعارض لا يعترض كلامه ولا ينفد . وأما الهزل فهو طريقته المثلى ، التى ركض فى ميدانها وجلى ، وطلع فى أفقها وتجلى . فأصبح علم أعلامها ، وعابر أحلامها . ان أخذ بها فى وصـف الكاس ، وذكر الورد والآس ، والم بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله والروض وطيبه ، والغمام وتقطيبه ـ شق الجيوب طربا ، وعل النفوس أريا وضربـا (110) . وان اشفق لاعتلال العشية ، فى فرش الربيـع الموشيـة ، ثـم تعداها الى وصـف الصبوح ، وأجهـز على الـزق المجروح ، وأشار الى نغمات الورق ، وقد اشتعلت فى عنبر الليل نـار البرق ، وطلعت بنود الصباح (107 . أ) فى شرفات الشرق ـ سلـب

---

109) العرار : واحدة عرارة ، وهو بهار ناعم اصفر طيب الرائحة . وعرار نجد الذى يلمح اليه المؤلف هو الذى عناه الشاعر قديما بقوله :

تمتـع من شميـم عـرار نجـد فمـا بعـد العشيـة مـن عـرار

110) الأرى : بفتح الهمزة وسكون الراء مصدر ارى ، وارى النحل ، عمل العسل فالأرى (بفتح الهمزة وسكون الراء هو العسل) .

الحليم وقاره ، وذكر الخليع كاسه وعقاره . وحرك الاشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونها ، بلسان يتزاحم على مورده الخيال ، ويتدفق من حافاته الادب السيال . وبيان يقيم أود المعانى ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المبانى ، ويكسو حلل الاحسان جسوم المثالث والمثانى . الى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة يجنى بها الشهد ويثار .

وقد أثبت من شعره — وان كان لا يتعاطاه الا قليلا ، ولا يجاوزه الا تعليلا — أبياتا لا تخلو من مسحة جمال على صفاتها ، وهبة طيب تنم فى نفحاتها .

ومن ذلك فى وصف :

83 — ابى القاسم الشريف الحسنى (111)

ما شئت من قدرة وايد ، ليس من عمرو ولا زيد . أكرم من عمر للبلاغة مجالا ، وأطوع من دعا أبيات المعانى فجاءت عجالا ، وأبرع من أدار كؤوس البيان المعتق ، ولعب بأطراف الكلام المشقق ، روية وارتجالا ، وأجل من أشار اليه الشاعر بقوله :

« وخير الشعر أكرمه رجالا » .

قدم على (107 . ب) الحضرة هذا القاضى الشريف ، وقذف بدرته النفيسة لها الريف . روض أدب وظرف ، لما شئت من حسن

---

111) هو الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله الحسنى السبتى . ولد بسبتة فى 6 ربيع الاول 697 هـ (22 ديسمبر 1297 م) حيث نشأ بها ، وقرأ القرآن ، وتملأ من العلوم واخذ بحظ وافر من المنظوم والمنثور ، ثم انتقل الى غرناطة ، حيث التقى بشيخ الكتاب ابن الجياب ، الذى ضمه الى الكتابة الديوانية ، وهو أحد

وعرف . يدير من الحاضرة جريالا ، ويسحب للبدائع أذيالا . ذا نفس كريمة ، وأخلاق كالروض غب انسكاب ديمة . وقعد بمسجدها فدرس وحلق ، وسطع نوره فى أفقها وتألق . واستأثرت به الكتابة السلطانية لاول وروده ، وسبغت عليه من الاحسان سوابغ بروده . وترشح بخلاله المرتضاه ، الــى قضاء القضاة . وهــو ــ الآن ــ قاضى الجماعــة وامامها (123) ، وقيم الشريعة الذى فى يديه زمامها ، بلغت به تلك

شيوخ ابن الخطيب المعدودين فى مفاخر صفحاته العلمية .
تقدم للقضاء فى انحاء شتى من الاندلس ، ثم اختير قاضيا للجماعة بغرناطة ، وخطيبا للمسجد الاعظم فترة من الوقت ، ثم عزل ، ثم أعيد مرة اخرى ، كما جدد السلطان الغنى بالله الولاية له بعد وفاة أبيه السلطان أبى الحجاج .
وللمترجم له مؤلفات ما زال معظمها مخطوطا لم ير النور بعد ، مثل « الجواهر الثمينة ، فى صفات القاضى العادل » وكذا مؤلفه الضخم « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » شرح بها مقصورة اديب المغرب الامام أبى الحسن محمد القرطاجنى التى مدح بها المستنصر بالله أبى عبد الله محمد الحفصى ، وذلك فى مجلدين كبيريــــن .
توفى هذا الفقيه الكبير بغرناطة فى 21 شعبان 760 هـ (18 يوليو 1359 م) عــن 63 عامــــا .
راجع : يوسف الاول ابن الاحمر للمحقق ص 78 ــ 79 (لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م) .

112) جرت عادة الاندلسيين ان يختاروا من بين قضاة المدن « قاضيا للجماعة » وهو المعروف بــ « قاضى العاصمة » أو « قاضى الحضرة الملكية » ويعد منصبه من أرفع المناصب الدينية ، ولهذا يراعى فى اختيار صاحبه السمعة الطيبة ، والكفاءة والتبريز فى ميدان القضاء ، الى جانب التاليف فى هذا ، والشهرة فى الفتاوى ، فلم يكن ليشغل هذا المنصب سوى العلماء المشهورين ، أو الفقهاء الكبار ، مثل الشريف السبتى ، وأبى البركات بن الحاج البلفيقى .
ويقوم قاضى القضاء عادة بالخطابة فى المسجد الاعظم بالعاصمة ، ويتم هذا الاختيار السامى بمقتضى ظهير ملكى خاص ، حيث تقام حفلة تنصيبه بالمسجد الاعظم أو مسجد الحمراء ، وقد أورد ابن الخطيب فى كل من « الاحاطة واللمحة البدرية » أسماء من تولوا القضاء بالحضرة الملكية ، وخاصة من عاصرهم ، مرتبا ذكرهم غالبا حسب تاريخ اعتلائهم هذا المنصب .
راجع : المصدر السابق ، ص 74 .

المثابة آمالها ، واستأنفت بعد الكبرة جمالها ، وقالت له هيت لك (113) فلم تكن تصلح الا له ، ولم يكن يصلح الا لها . وألقت له الخطابة قيادها ، فأنسى قسها ، ووسم بعد الاغفال بسيمة الاحتفال جمعها واعيادها . وأما شعره فينازع الرضى نسيبه ، فخره وتشبيبه .

(108 : 1) ومن ذلك فى وصف :

84 — الشريف أبى عبد الله بن الحسن الحسينى

كريم الانتماء ، مستظل بأغصان الشجرة الهاشمية الممتدة الافياء ، التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء (114) . من رجل سليم الضمير ، ذو نفس أصفى من الماء النمير وبشهامة تثنى عليها الرجال ، اذا ضاق المجال ، وتقوضت الاجال ، وله فى الشعر طبع يشهد بعروبة أصوله ، ومضاء نصوله .

وقد أثبت من شعره ما يتضح فى البلاغة سبيله ، ويشهد بعتق الجواد صهيله .

ومن ذلك فى وصف :

85 — أبى القاسم بن الرئيس أبى زكرياء العزفى (115)

فرع تأود من الرياسة فى دوحة ، وتردد ما بين غدوة فى المجد

---

113) اقتباسا من قوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب ، وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله ، انه ربى أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون » . سورة يوسف ، آية 23 .

114) اقتباسا من قوله تعالى : « الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة، اصلها ثابت وفرعها فى السماء » سورة ابراهيم ، آية : 24 .

115) نسبة الى بنى العزفى المتأمرين بسبتة فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

وروحه . نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله (116) ، والدهر ييسر أمله الاقصى ويسهله . حتى اتسقت أسباب سعده ، وانتهت اليه رياسة سلفه من بعده ، (108 : ب) فألقت اليه رحالها وحطت ، ومتعته بقربها بعدما شطحت وشطت . ثم كلح له الدهر بعدما تبسم ، وعاد زعزعا نسيمه الذى يتنسم . وعاق هلاله عن تمه ، ما كان من تغلب ابن عمه . واستقر بهذه البلاد نازح الدار ، بحكم الاقدار ، وان كان نبيه المكانة والمقدار . وجرت عليه جراية واسعة ، ورعاية متتابعة .

وله أدب كالروض باكرته الغمائم ، والزهر تفتحت منه الكمائم . ورفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقا نافقة . وعلى تدفق أنهاره ، وكثرة نظمه واشتهاره — فلم اظفر منه الا باليسير التافه ، بعـــد انصـــرافـــــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

86 — أبى عبد الله بن الشيخ الحاجب بتونس أبـــى الحسن بن عمـــر

غرس نعمة هامية وربى رتبة سامية . تقلد أبوه حجابة الخلافـــة بتونس — وهى من سمو المكان ، ورفعة الشأن — فصرف اليه الوجوه ، ولم يبق الا من يخافه أو يرجوه . (109 : 1) وبلغ من ابنه هذا — مدة ذلك الشرف — الغاية فى الترف . ثم قلب لهم الدهر ظهر المجن ، واشتد بهم الخمار عند فراغ الدن . وبدلتهم الايام بزتها ، واسترجعت عزتها . ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مبيرة ، وشدة فى البحر كبيرة . فامتزج بسكانه وقطانه ، ونال من اللذات ما لم ينله فى أوطانه . واكتسب

---

(116) العل : (وبفتح العين) شرب الخمر المرة تلو المرة . والنهل : (بتشديد النون مع الفتح) أول الشرب .

الشمائل العذاب ، وكان كابن الجهم بعث الى الرصافة (117) ليرق فـــــــذاب .

ثم حوم على وطنه تحويم الطائر ، وألم بهذه البلاد المام الخيال الزائر . فاغتنمت صفقة وده لحين وروده ، وخطبت موالاته علـــى انقباضـــه وشـــروده .

فحططت منه على درة تقتنـــى ، حديقة طيبة الجنا . فيالله من ساعات أنس قطعناها ، ولذات اطاعتنا واطعناها ! ! ما كانت الا كأحلام نائم ، أو افاقة هائم ! رحلن وما ابقين الا الاسى ، والتعلل بعسى . .

والفقيه أبو عبد الله هذا ذو فهم جديد ، وفضل سديد ، وباع من الادب مديد . ولو تفرغ للتحصيل ــ بمقتضى (109 : ب) طبعه الاصيل ــ لعلت قداحه ، وكان بحرا لا يساجل ضحضاحه .

---

117) مدينة فى بادية الشام ، تبعد بنحو اربعين كيلومترا من نهر الفرات ، لهـــا اصالتها وشهرتها ، حيث وردت فى الكتب والآثار القديمة ، وقد سكنهـــا الغساسنة قبل الفتح الاسلامى ، كما اقام بها الخليفة الاموى هشام بن عبـــد الملك (724 ــ 743 هـ) .

اما ابن الجهم هذا فهو على بن السلمى القرشى ، كان شاعرا مجيدا ، سخـــر شطرا كبيرا من شعره فى هجاء آل ابى طالب والاغراء بهم ، فسخط عليـــه الخليفة المتوكل لذلك ولكثرة سعايته بين القوم ، فنفاه الى خراسان ، وهناك قبض عليه طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وصلبه يوما كاملا مجردا ثم حبسه ، فقال شعرا فيما حدث له من صلب وحبس ، توفى مقتولا عام 863 م بيد اعراب من بنى كلب ، وكان فى طريقه من حلب الى العراق . هذا وينسب اليـــه ــ بهذه المناسبة ــ قولـــــه :

عيـــون المهـــا بين الرصافـــة والجســـر
جلبـــن الهوى مـــن حيث أدرى ولا ادرى

ومن ذلــك فى وصـــف :

87 ـ أبى عبد الله ابن الحاجب بتونس
أبى عبد الله بن العشاب

جواد لا يتعاطى طلقة ، ولا يماثل بالفجر فلقة . كانت لابيه ـ رحمه الله ـ من الدول التونسية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة فى العقــد والحل . ولم تزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل الى الحجابـــة . ونشأ ابنه هذا مغدى بالانفس والعيون ، مقضى الديون ، حالا من الضمائر محل الظنون . والدهر ذو الوان ، ومارق حرب أوان ، والايام كرات تتلقف ، وأحوال لا تتوقف . فألوى بهم الدهر وانحى ، وولد غمام جوه بعقب ما له صحا . وشملهم الاعتقال ، وتعاورتهم النوب الثقال ، واستقرت بآخره بالمشرق ركابه ، وحطت به اقتابه . فحج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعمر . وعكف على كتاب الله فجود الحروف ، (110 : أ) وقرأ الخلف المعروف . وقيد واسند ، وتكرر الى دور الحديث وتــــردد .

وقدم على هذه البلاد قدوم النسيم البليل ، على كبد العليل . ولما استقر بها قراره ، واشتمل بجفنها غراره ـ بادرت الى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته . فاجلتيت السرور شخصا ، وطالعت ديوان الوفا مستقصى ، وعلمت معنى الكلام تأويلا ونصا . فحيا الله زمن اقترابه ، فلقد جاد وأجــاد ، وأفاد ما لا أخاف عليه النفاد .

وأما شعره فليس بحائد عن الاحسان ، ولا غفل عن غرر البيان .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

88 — صاحب القلم الاعلى بالمغرب أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى (118)

الفذ الذى يعدل بالالوف ، والبطل المعلم عند مناجزة الصفوف ، والمتقدم بذاته وأداته تقدم الاسماء على الحروف .

نشأ بسبتة — حرسها الله — بين علم يفيده ، ومحل يشيده . وطهارة يسحب مطارفها ، ورياسة يتفيأ وارفها . وأبوه — رحمه الله — (110 : ب) قطب مدارها ، ومقام حجها واعتمارها . فسلك الحزون من المعارف والسهول ، وبذ — على حداثة سنه — الكهول . ولما تحلى من الفوائد العلمية بما تحلى ، وبرز فى ميدان المعارف وجلى، واشتهر الصباح اذا تجلى — تنافرت اليه همم الملوك الاخائر واستأثرت به الدول — على عادتها — فى الاستئثار بالذخائر . فاستقلت بسياستها

---

118) هو الاستاذ الرئيس ابو محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمـــن بـــن محمد بن على بن محمد الحضرمى النسب ، السبتى النشاة ، يتصل نسبـــه بالصحابى العلاء بن الحضرمى ، وقد وفدت الاسرة من اليمن الى الاندلس ، ثم نزح والد المترجم له الى سبتة ، حيث شغل منصب القضاء بها على عهد بنى العزفى امرائها . وفيها ولد صاحبنا عام 676 هـ ، ولما شب عن الطوق وحفظ القرآن الكريم قرأ على شيوخ المغرب البارزين ، أمثال رشيد والغافقى وابن الغماز وغيرهم ، حتى ابلغت مشيخته نحو الالف . وتولى منصب الكتابة بالمغرب للسلطان ابى على بن ابى سعيد المرينى عام 712 هـ . وصفه الاميـــر ابو الوليد ابن الاحمر بقوله : « بيته بيت علم سحب من التحصيل ذيـــلا ، وتضوعت من عرف عرفانه نواسم التفنن نهارا وليلا وطوقته المفاخر طوقا ، واذاقه الفهم من حلاوة العلوم ذوقـــا » .

توفى — رحمه الله — بتونس بمرض الطاعون الجارف فى 12 شوال عام 749 هـ راجع : ابى الوليد ابن الاحمر فى : مستودع العلامة ، ومستبدع العلامة . . تحقيق محمد التركى التونسى ، ص 50 (ط معهد مولاى الحسن للبحوث بالمغرب 1964 م) . وكذلك : الاستاذ عبد الله كنون فى « ذكريات مشاهير رجال المغرب — عبد المهيمن الحضرمى » نشر دار الكتاب اللبنانى (بيروت ط 1 مايـــو 1960 م) .

ذراعه ، وأخذم السيوف والذوابل يراعه (119) . وهو — الآن — عينها التى بها تبصر ، ولسانها الذى تسهب به وتختصر .

وقد تقدمت له — الى هذه البلاد — الوفادة ، وحلت به لديه الافادة . وكتب عن بعض ملوكها وانتظم فى سموطها الرفيعة وسلوكها .

وله فى الادب الراية الخافقة ، والعقود المتناسقة . فما شئت من لفظ طاب عرفه ، ومعنى سحر الالباب ظرفه . وقد أثبت من كلامه فى « ريحانة الكتاب » ما تتمناه النحور بدل قلائدها ، وتجعله الحور تمائم على ولائدها .

ومن ذلك فى وصف :

89 — (111 : أ) الخطيب أبى عبد الله بن رشيد (120)

بحر معارف لا يسبر غوره ، وروض فنون تضوع مسراه واينع نوره ، وفريد زمانه الذى لا يأتى بمثله دوره .

---

119) يقصد بالعبارة ، ان قلمه جعل السيوف والذوابل تقر بالذل وتسكن ، كناية عن رفعة الشأن .

120) هو الشيخ ابو عبد الله بن رشيد الفهرى السبتى ، من كبار الائمة ، ومشاهير الخطباء . كانت ولادته بسبتة عام 657 هـ ، وتوفى بفاس فى شهر المحرم من عام 721 هـ ، وبها دفن بمطرح الحلة من القباب . وترجع شهرة المترجم له الى أنه كان واحدا من المحدثين ذوى الاسناد وممن عرفوا بالتضلع فى علوم النحو والعروض والادب ، كما كان مؤرخا عالما فى القراءات ، رحالة .
وفد على غرناطة العاصمة ، فتولى الخطابة بمسجدها الاعظم حوالى عام 692 هـ واقام حينئذ فترة من الزمن ، حيث ظفر بمكانة سامية تليق بمقامه ، وقصد المشرق مرتحلا مرتين ، وخلال تجواله التقى بالعلماء واخذ عنهم ، ولما عاد من رحلته الاخيرة وضع كتابا حول هذه الاسفار ، واخيرا قفل راجعا الى فاس ، وأقام بها حتى توفى رحمه الله .
راجع : ابن الخطيب فى « نفاضة الجراب » تحقيق د. العبادى ج 2 ص 307 — 352 (القاهرة 1968) . والاستاذ عبد الله كنون فى « النبوغ المغربى » ص 206 — 207 (بيروت 1961) .

نشأ ببلده سبتة – حرسها الله – أصون من الدر فى صدفــه ، وأطهر من الماء فى نطفه . لا يسرح – فى غير المطالعة – طرفا ، ولا يتنشق – لغير المعارف – عرفا . حتى سما مقداره ، وكمل فى وطنه ابداره ، فأشارت اليه العيون . وطمح الى الرحلة والزمان برحاله غنى وبكل قطر روض جنى ، وعالم سنى . فرحل عن بلده رحيل الغمــام بعدما أمطر ، واقشع اقشاع الربيع عقب ما أزهر . ولم يزل يطلــع بكل ثنية ، ويعشو الى نار كل فائدة سنية . وكلما مر بفائدة فى طريقه صرف اليها أعنة فريقه . حتى عرس بالمثوى الجليل ، واستظل بالجدار الذى رفعت قواعده أكف الخليــل (121) ونقع من ماء زمزم معتــدم العليل (122) . وسنح له باليمن طيره ، وأحسب رحلته بالحرم الامين أبو اليمن وغيره . ثم صرف عنان أمله وسوله (112 : ب) الى زيارة قبر نبى الله ورسوله ، فصلى بين روضته الطاهرة ومحرابه ، وتمتع ما شاء من لثم جداره وانتشاق ترابه . ودخــل الشام فى منصرفــه ، مستكثرا من عيون العلم وطرفه ، وآب الى جوه وقد دون رحلتــــه العظيمة الامتاع ، وأتى منها ما يقيد النواظر والاسماع وسماها بـــ « ملء العيبة ، فيما قيد بطول الغيبة الى مكة وطيبة » (123) اسم وافق مسماه ، وسهم أصاب مرماه .

ولحــق بالاندلس ، فتهللت لقدومــه أسرتها – واحتفلت لقــراءه درتها . وأخذ عنــه صدورها واستمدت مــن تمه بدورها . وفعــم

121) يعنى به « البيت الحرام » وتعبيره اشارة الى قوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . . الآيــة »

122) معتدم العليل : ما يفتقر اليه العليــل .

123) الاستاذ عبد الله كنون اسم الرحلة هكذا : « ملء العيبــة ، فيمــا جمــع بطول الغيبة ، فى الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة » مشيرا الى أن المؤلف خصص فيها قدرا عظيما لذكر مسائل الحديث واسانيده مما يشهد له – فى هذا الباب – بطول الباع ، وقلة النظير ، مع رسوخ القدم فى التمسك بالسنة والعمــل بمقتضاهــــا :

راجع « النبوغ المغربى » ص : 193 .

مجالسها العلمية طيبا ، وصعد منبر الحضرة خطيبا . وله من مدبر الدولة النصرية ذى الوزارتين ابن الحكيم (124) محلة ، وفاء عليه ظله ، لمودة بينهما عقدت ، ورسائل ــ قبل الرياسة ــ نقدت ، فانه كان رفيق طريقه ، ومساعده على تشريعه . انتفع به لديه الكثير ، وأنجح الآمال محله الاثير .

ولما محقت النكبة نوره (125) ، وقصرت على العفاء قصوره ، ضاق بالخطيب ــ رحمه الله ــ العطن ، ونبا به بعده الوطن . (112 . أ) فارتحل الى المغرب ، ولم يزل به رفيع المكانة ، صدرا فى أولى العلم والديانة . حتى انصرم أجله ، وانقطع عن الحياة أمله .

وكان له شعر يتكلفه ، ولا يكاد ــ لعدم شعوره بالوزن ــ يتألفه . ومع ذلك فأعلم أهل زمانه بالبديع وألقابه ، والكلام على أبوابه .

124) هو الاديب الشاعر أبو عبد الله بن الحكيم اللخمى الرندى ، وزير السلطان محمد المخلوع (701 ــ 708 هـ) واحد شيوخ ابن الخطيب ممن تتلمذ عليهم فى ميدان الادب والشعر ، له مؤلف لم يصل الينا اسماه « تاريخ الاندلس » ، توفى ابن الحكيم قتيلا عام 1308 م اثر خلع سلطانه المذكور . وتجدر الاشارة بهذه المناسبة الى ان لقب « ذى الوزارتين » يرجع الى عهد ملوك الطوائف ، وهو من القاب التشريف والتفخيم المتضمنة ازدواج الاختصاص ، اى جمع صاحبه بين وزارتى القلم والسيف ، وقد حظى بهذا اللقب عدة من اكابر وزراء عصر الطوائف ، مثل الشاعر ابى الوليد بن زيدون وزير بنى جهور وبنى عباد والشاعر ابى بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد ، وابى بكر ابن القصيرة كاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويعتبر ابو بكر بن عمار اشهر من اضطلعوا بمنصبى القيادة والوزارة . ولئن كانت الوزارة قد توارت ايام المرابطين ثم الموحدين ، الا انها عادت الى الظهور فى مملكة بنى نصر بغرناطة ، فكان « أبو عبد الله ابن الحكيم » أول من حمل اللقب فى هذه المملكة ، ثم تلاه حاملا نفس اللقب « لسان الدين ابن الخطيب » .
راجع : لسان الدين ابن الخطيب ــ للاستاذ عبد الله عنان ، ص 34 ، 106 ، 214 (القاهرة 1968) . وكذا يوسف الاول ابن الاحمر ، للمحقق ، ص 43 (القاهرة 1969) .

125) يعنى بهذه النكبة الانقلاب الذى اودى بحياة صديق المترجم له الوزير ابن الحكيم ، على نحو ما اسلفنا فى التعليق .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

90 — أبى عبد الله بن هانى السبتى (126)

علم تشير اليه الاكف ، وتعمل الى لقائه الحوافر والخف ، عمر الربع ببلده سبتة وقد قضت الرحال ، وأقام درس العلم وقد حالـــت الحال ، وجاد بالوابل السجم عندما عظم الامحال . ورفع للعربيـة راية لا تتأخر ، ومرج منها لجة تزخر . فانفسح مجال درسه ، وأثمرت أدواح غرسه . فركض فى تلك الميادين ومرح ، ودون وشرح . وجلى المشكلات ، وداوى المعضلات الى شمائل تملك الظرف زمامها ، ونادرة راشت الدعابة سهامها .

ولما أخذ المسلمون فى مناوشة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر منه بجارحة ابصاره ، ورموا بالثكل فيه نازح امصاره — كان ممـــن انتدب وتطوع ، وسمع النداء فاهطع . (112 . ب) فلازمه حتى نفذ لاهله القوت ، وبلغ من فتحه الاجل الموقوت . فأقام الصلاة بمحرابه وحياه ، وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الاسلام فى قرابه ، أو يعلق أصل الدين فى ترابه . وانتدب — رحمه

---

126) هو الشيخ الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن هانىء اللخمى السبتى ، أحد المبرزين من علماء الاندلس فى العربية ، وله المؤلفات الهامة فى علوم الديـــن والادب ، منها : شرح « التسهيل لابن مالك » ، وكتاب « الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة » ، و « انشاد الضوال ، وارشاد السؤال » ، وهو يتناول لحن العامة ، كما دون ترسيل ابى المطرف بن عميرة ، وجعله فى سفرين . وقد توفى — رحمه الله — شهيدا فى حصار جبل طارق عام 733 = 1333 م ، ورثاه الشعراء بقصائد مؤثرة ، نذكر منها قصيدة الشاعر ابـــى بكر بن شيرين التى يقول فيها :

قـــد كـــان مـــا قـــال البريـــد . فاصبـــر فحزنـــك لا يفيـــد
اودى ابـــــن الـــرضـــى فاعتادنـــى للثكـــل عيـــد

راجع : النبوغ المغربى — للاستاذ عبد الله كنون ، ص 210 — 211 .

الله ــ الى الحصار وتبرع ، ودعاه أجله فلبى وأسرع . ولما هدر عليه الضيق ، وركعت الى قبلته المجانيق ــ أصيب بحجر حوم عليه كالجارح المحلق ، وانقض اليه انقضاض البارق المتألق . فاقتنصه واختطفه ، وعمد الى زهرة فقطفه . فمضى الى الله طلوع نيته ؛ وصحبه غرابــه المنازع حتى فى منيتـــــه .

وكان له أردب قاعد عن مداه ، وقاصر فى جانب العلم الذى شمله وارتـــــــداه .

ومن ذلــك فى وصــف :

91 ــ أبى الحسن بن تداوت

درة تحلى بها الدهر العاطل ، وعدة أنجزها الزمان الهاطل . وغرة أطلعها العصر البهيم ، وفائدة أنجبها الدهر العقيم . ما شئت من خلق تدل على الكمال مخائله ، ومجد كرمت أواخره وأوائله ، وأدب تجلت عذاراه وتبرجت عقائله . فاذا تناول (113 . أ) القاع ووشاها ، وغشى الطروس من خلل بيانه فما عشاها ــ ودت الجرود أن تتمثل طرسا ، والجفون السود أن تكون لها نفســـا .

ورد أبوه ــ رحمه الله ــ على البلاد الاندلسية ، فرحبت بمقدمه عليها ، وجلت افادة وفادته لديهــا . ففاءت بها ظلال معارفه التـــى اغترس ، ودرس فيها علم الاصول بعدما درس . وتصرف فى القضاء ، تصرف العدالة والمضاء . ونشأ ابنه هذا كريم النشأة والبداية ، وكنوفا بظل العناية . وتصرف فى القضاء على حداثة سنه وغضارة عــوده ، وقرب العهد بتألق سعــوده .

ثم حث ركاب ارتحاله ، وبادر حزمه بحل عقاله ، فسعد سعادة شبيهة القمر عند انتقاله . وهو الآن بدولة المغرب ــ أيده الله ــ جملة

من جمل الكمال ، ومظنة للآمال . تغرى بثنائه الالسن ، ويروى من أحاديثه ما يصح ويحسن . وورد على هذه البلاد ورود الكرى على مقلة الساهر ، واحتلها احتلال النسيم بين الازاهر . وجمعتنى وإياه بعض الاسفار ، فى غزوات الكفار . (113 . ب) فاجتنيت منه الفوائد بين فرادى ومثنى ، واجتليت منه المحاسن حسا ومعنى .

وقد أثبت من آدابه ما يستعير النسيم العاطر عرفه ، ويحسد الروض حسنه وظرفه .

ومن ذلك فى وصف :

92 ـ القاضى أبى الحجاج الطرطوشى

روض أدب لا تعرف الذرى أزهاره ، ومجموع فضل لا تخفى آثاره . كان ـ رحمه الله ـ صدرا من صدور زمانه ، وممن تزهى المهارق (127) بجمانه ، وتتجلى لباتها بقلائد عقيانه الى ظرف يستهوى النفوس ويستميلها ، وفكاهة تهز أعطاف الوقار وتميلها ، ودعابة تركض أفراس الطرب وتجيلها . ومعرفة فسيحة المدى ، اتشح بفضلها وارتدى ، وغبر فى وجه من راح أو غدا .

وكان فى فنون الادب مطلق الاعنة ، وفى مغازيه ماضى الظبا والاسنة . فان هزل ـ والى تلك الطريقة اعتزل ـ أبرم فى الغزل ما غزل ، وبذل من دنان راحه (128) مابذل . وان صرف الى المغرب غرب لسانه، وأعاره لمحة من لمحات احسانه ـ أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه .

---

127) المهارق : بفتح الميم وكسر الراء ، ج مهرق بضم الميم وفتح الراء ، وهى الصحيفة ، كما تطلق على ثوب من الحرير ابيض يسقى الصمغ ويصقل ، ثم يكتب فيه ، كذا فى القاموس واللسان ، وكلا المعنيين مناسب .

128) دنان راحه : بكسر الدال أوعية خمرة ، والمفرد : دن ، بفتح الدال وتشديد النون .

(114 . أ) ورد على الحضرة الاندلسية (129) والدنيا شابة ، وريح القبول هابة . فكتب عن سلطانها واجتلى محاسن أوطانهــا ، ومدح بعض أملاكها ، وعشى الى نور أفلاكها . ثم كر الى وطنه وعطف ، وأسرع اللحاق بجوه كالبارق اذا خطف ، فورد من العناية الحياض الفاههة (130) والنطف ، وحل رياض الكرامة فهصر ما شاء وقطف . وتصرف فى القضاء بذلك الريف سالكا من الادب سننه الطريف ، ومنزعه الظريف .

وتوفى ــ على هذا العهد ــ عن سن عالية ، وبرود من العمر بالية . وقد حلب أشطر الدهر وأخلافه (131) وارتضع سلافه ، حتى أمر عنده من العيش كل عذب الجنــا ، وبدل من الشطط بالجنا . وبلغ من المقام لهذه الدار حده ، والبقاء لله وحده .

ومن ذلــك فى وصــف :

93 ــ أبى العباس بن شعيب (132)

مورد ترده البهيم فتروى ، وتهوى اليه النفوس فتجد عنده مــا تهوى . وصدر لا يخفى مكانه ، وذخر أضاعه زمانه . (114 . ب) حاز من كل فن نصيبا ، ورمى الى كل غرض سهما مصيبا . واستمطر كــل

---

129) يعنى بالحضرة الاندلسية على عصره « غرناطــة » .
130) الحيــاض الفاهقــة : الممتلئــة .
131) التعبيــر كناية عن انه خبر الدهــر وجربــه .
132) هو الكاتب الشاعر ابو العباس أحمد بن شعيب الجزنائى الفاسى . مــن حفظة الشعر ونقدته ، وممن جمعوا بين ملكة الشعر والنثر بالاضافة الى جودة الخط . عمل كاتبا فى ديوان الانشاء لدى السلطان ابى الحسن المرينى ، وشهر عنه ــ مع ذلك ــ معرفته بالطب والكيمياء وعلم النبات . توفى بتونس يوم عيد الاضحى من عام 749 هـ (مارس 1349 م) .
راجع : المصدر السابق ، ص : 227 .

عارض وديمه ، من العلوم الحديثة والقديمة فبرع فى فنونها وبهـر ، وحذق الطب منها ومهر . وبلغ فى صنعة النبات درجة الاثبات . ورضى بالانتماء الى العلم والانتساب ، من الاكتساب . فما أهمه الدهر بالوانه، ولاثناه عن شأنه . وعانى فى حركاته وانتقاله ، مشقة اعتقاله ، وخلص خلوص الحسام بعد صقاله . وهو ــ الآن ــ من كتاب ملك المغرب (133) تطوى عليــه الخناصر اذا عدوا ، وتدخر لقصب السبــق اذا أحصروا واشتــــدوا .

ورد على الحضرة فى خدمة لبعض الولاة تولاها ، ووجهة فرى لها الفلا وفراها . فرأيته رؤية لم تنهض للمحاورة والكلام ، والمخاطبة لما يجب لمثله من الاعلام ، لجمود هذا الباعث عندى فى العهد المتقدم (134) ولم ألبث أن عضضت يد المتندم ، أسفا على ما ضاع من لقائه ، واجتلاء الفوائد من تلقائه .

وله شعر تهوى الشعرى أن تتخذه شنفا (135) (115 . أ) ، ونثر تود النشوة لو تتحلى بــه وان شمخت أنفا . من ذلك ما خاطب بــه الشيخ أبا جعفر بن صفوان ، وقد رمى اليه بقاصية هواه ، واعتده فى رحلته أنفس ذخــر حــــواه .

---

133) السلطان ابو الحسن المرينى ، كما ذكرنا (731 ــ 752 هـ) .

134) يشير ابن الخطيب بهذا الى فترة شبابه بالاندلس ، حينما كان وزيرا لملك غرناطة ابى الحجاج يوسف الاول (733 ــ 755 هـ / 1333 ــ 1354 م) المعاصرة لملك المغرب يومئذ (ابى الحسن المرينى) ، ونستنتج من اشارة ابن الخطيب هذه الى ان تاريخه لهؤلاء المترجم لهم ــ فى هذا الكتاب ــ كان بعد نزوحه للمغرب نهائيــــا .

135) الشنف . بتشديد الشين مع الفتح واسكان النون ، وهو : ما يعلق فى الاذن او اعلاها من حلى عند النساء ، والجمع : شنوف ، واشناف .

ومن ذلــك فى وصــــف :

94 ــ « الكاتب أبى عبد الله بن عمر التونسى »

كاتب الخلافة ، ومشعشع الادب المزرى بالسلافة . كان ــ رحمه الله ــ بطل مجال ، ورب روية وارتجــال .

قدم على هــذه البلاد (136) وقد نبا وطنـــه ، وضاق ــ ببعض الحوادث ــ عطنه . فتلوم بها تلوم النسيم بين الخمائل ، وحل فيهـــا محل الطيب من الوشاح الجائل . ولبث ــ مدة اقامته ــ تحت جراية واسعة ، وميرة يانعة . ثم آثر قطره (137) فولى وجهه شطره . واستقبله دهره بالانابة ، وقلده رياسة الكتابة . فاستقامت حاله ، وحطت رحاله .

حدثنى بعض من عنى بأخباره ، أيام مقامه برية واستقراره . أنه لقى بباب الملعب ذات ليلة ــ ظبية من ظباء الانس ، وفتنة من فتـــن (115 . ب) هذا الجنس . فخطب وصالها ، واتقى بمهجته نضالها . حتى همت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن المياد . فأبقى علـــى نفســـه وأمسك ، وأنف من خلع العذار بعدما تنســـك .

ومن ذلــك فى وصــــف :

95 ــ « أبى عبــد الملك » (138)
مــن أهــل مــراكــش

. . وقور أفرط حتى أثقل ، وقريع مجد مسه الاحتياج فتنقل ، ووجد الجميم فعافه وتبقل . وحل من بلده مراكش لما جف حوضه ، وصوح

---

136) هذه البلاد : يعنى بها الاندلس .

137) قطره : يعنى بـــه تونـــس .

138) مراكش : عاصمة المرابطين والموحدين بجنوب المغرب ، اسسها زعيـم الاولين واعظمهم يوسف بن تاشفين عام 454 هـ (1062 م) وبنى بها مسجده

روضه . واتخذ رية دارا ، واختارها قرارا . وجرت عليه جراية تبلغ بها ، وارتغد بسببها ، رعيا لابيه ، واحتراما لبيته النبيه . فقد كان أبوه ــ رحمه الله ــ قاضيها صدرا فى عصره ، وبدرا فى هالة قطره . رحب المجال نسيج وحده معرفة بطرق الحديث وأسماء الرجال . متجرا فى علوم الآداب ، منتدبا لاقامة رسم المعارف كل الانتداب .

وابنه هذا متمسك من الآداب بأذيالها ، مغرى بادارة جريالها . الى سرو عميم (139) ، ووفاء يثنى كل صديق (116 . أ) له حميم . ولما تقلدت بهذه البلاد تنفيذ أرزاق الاجناد بادرت الى تقديم واجبه ، وايثار جانبـــــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

96 ــ أبـــى اسحاق الحسانـــى
مـــن أهـــل تونـــس

شاعر لا ينضب طبعه ، ولا يقفر ربعه . قصد الملوك وانتجع ،

المعروف باسم « جامع يوسف » ولما جاء المرينيون تحولوا عنها الى « فاس » واتخذوها حاضرة لهم ، ففقدت مراكش من ذلك الحين مركزها السياسى . وقد شيد بها الموحدون جامع الكتبية بمنارته الشهيرة ، وبمراكش مـــن آثار السعديين مقابرهم العظيمة ، وللعلويين بها جنان اجدال ، التى انشاها عبد الرحمن بن هشام العلوى . وبالمدينة ضريح القاضى عياض ، وابو العباس السبتى ، وابو القاسم السهلى ، ومحمد بن سليمان الجزولى .
تشتهر مراكش بصناعة الجلد والصباغة والنحاس ، والمنسوجات الوطنية ، والزرابى . وخارجها مزارع الزيتون ، وواحات النخيل الشاسعة ؛ تحوطها جبال الاطلس التى تكسوها الثلوج شتاء .
راجع : البغدادى فى « مراصد الاطلاع ، على اسماء الامكنة والبقاع » ج 3 ، ص 1251 .

139) ســـرو عميم : شرف شامـــــل .

وهدل فى أفنان أمداحها وسجع . وتجرأ على اقتحام دسوتها (140) ، وولوج بيوتها . وقدم على هذه البلاد فأعجب الادباء باكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ، وتنوزع فى ايثاره . ثم استرسل طوع لذاته ، وسعى فى جلب المكروه الى ذاته . ونمى عنه قيل وقال ، ناله به اعتقال . ثم تكرر على هذه البلاد وقد تبدلت تلك الدولة ، وضمدت تلك الصولة . فتلقى باقبال ، وهبت له ريح اهتبال . ثم حركه الشوق الى بلده ، وبلغ نواه الى أمده .

وقد أثبت من شعره ما يدل على استرسال لهواته ، واقتداره على الكلام من جميع جهاته .

ومن ذلك فى وصف :

97 — أبى عبد الله المكودى (141)
من أهل فاس

(116 . ب) شاعر لا يتعاطى ميدانه ، ومرعى بيان رف غضاه وأينع سعدانه . يدعو الكلام فيهطع لداعيه (142) ، ويسعى فى اجتلاب

140) دسوتها : يعنى بها صدور المجالس . والمفرد منه دست ، بفتح فسكون ، والكلمة أصلا فارسية ولها عدة معان أخرى ، منها صدر البيت ، والوسادة والمرجل الكبير من النحاس ، وغير ذلك . كذا فى القاموس المحيط .

141) هو الاديب الشاعر محمد بن عبد الرحمن المكودى الفاسى ، يكنى ابا عبد الله ، والنسبة الى بنى مكود ، قبيلة من الهوارة التى كانت تقطن بين فاس وتازة ، ثم استقرت أسرة المترجم له فى فاس ، فعرفت من بين بيوتها العريقة بالعلم والفضل ، ويعد ابو عبد الله هذا من شعراء عصره المبدعين ، وممن عرفوا بدقة تصوير العواطف النفسية ، وجودة التعبير عنها ، حتى كان لشعره وقع جميل فى قلوب سامعيه . توفى — رحمه الله — عام 753 هـ .
راجع : الاستاذ عبد الله كنون فى « النبوغ المغربى » ص : 227 — 228 .

142) يهطع لداعيه : يسرع اليه مقبلا ، والمصدر منه : هطعا ، بفتح فسكون ، وهطوعا بالضم .

المعانى ، فتنجح مساعيه . غير أنه أفرط فى الانهماك ، وهوى الـــى بطـــن السمكة من أوج السمـــاك .

قدم على هذه البلاد مفلتا من رهق تلمسان حين الحصار (143) ، صفر اليمين واليسار من اليسار فل هوى انحنى على طريفه وتلاده ، وأخرجه من بلاده . ولما جد به البين ، وحل هذه الحضرة بحال تقتحمها العين ، والسيف بهزته ، لا بحسن بزته ــ دعوناه الى مجلس أعار البدر هالته ، وخلع عليه الاصيل غلالته . وروض تفتح كمامه ، وهمى عليه غمامه . وكأس أنس تدور ، فتتلقى نجومها البدور .

ولما ذهبت المؤانسة لخجله ، وتذاكر هواه ، ويوم نواه ، حتـــى خفنا حلول أجله ــ جذبنا للمذاكرة زمامه ، واستسقينا منها غمامه . فأمتنع واحسب ، ونظر ونسب . وتكلم فى المسائل وحاضر بطرف الابيات وعيون الرسائل . حتى نشر الصباح رايته . وأطلع النهـــار آيتـــــــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

98 ــ الاديبة أم الحسين بنت احمد الطنجالى نزيلـــــة لـــوشـــة

ثالثة حمدلة وولادة ، وفاضلة جمعت الادب والمجادة ، وتقلدت المحاسن قبل القلادة ، وأولدت أبكار الافكار قبل سن الولادة . نشأة

---

143) تذكر المؤرخات فى صدد هذا الحصار ، أن ابا تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان كان آخر من تولى الملك من بنى زيان فى تلمسان عام 718 هـ ، ثم نشب خلاف بينه وبين السلطان ابى عنان ملك المغرب الذى هب لمنازلته ، وحاصره ثلاث سنوات ، بعدها استولى ابو عنـــان على المدينة ، وذلك ليلة 27 من شهر رمضان 737 هـ (29 أبريل 1337 م) . راجع : « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » لابن الخطيب بتحقيقنا ، ص : 57 ومـــا بعدها (القاهرة 1968 م) .

أبيها لا يدخر عنها تدريجا ولا تنبيها ، حتى نبض ادراكها ، وظهر فـــى المعارف حراكها . ودرسها الطب ففهمت أعراضه ، وعلمت أسبابـــــه وأغراضه . ولم يزل يتعهدها بالتعليم والتخرج ، وينقلها بحسن التدرج ، حتى نظمت الكلم ، وداوت بالسبك المعنى الالم .

ولما قدم أبوها من المغرب ، وتكلم بخبرها المغرب ، توجه بعض الصدور الـــى اختيارها ، ومطالعة أخبارهـــا . فاستحسن أغراضهـــا واستحسنها واستظرف لسنها . وسألها عن الخط ــ وهو أكسد بضاعة جلبت ــ فأنشدته من نظمها ما ثبت فى التاج (المحلى ، فى مساجلة القدح المعلـــى) (144) .

---

144) التاج المحلى : احد مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب ، وهو عبارة عن تراجم لاعيان الاندلس فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وتنويه بمملكة بنى الاحمر منذ نشأتها حتى عصر المؤلف . وقد اعتمد المقرى على هذا الكتاب فى كثيــر من التراجم التى اوردها فى كتابه « نفح الطيب » . وتوجد « للتاج المحلـــى » نسخة مخطوطة ضمن مخطوط ضخم بالاسكوريال بمدريـــد تحت رقـــم : (554 الغزيرى) .
راجع : البحث المنشور للمحقق فى مجلة « تراث الانسانية » ، بعنوان : « معيار الاختيار لابن الخطيب » ، المجلد الرابع ــ العدد 4 (ابريل 1966) الصادرة عن وزارة الثقافة بالقاهـــرة .

البابُ الثاني

أوصاف الناس في التواريخ والصّلات

القسم الثاني

ومن ذلك (1) ما ثبت فى « الاكليل الزاهر ، فيمن (83 : ب) فضل عند نظم التاج من الجواهر » (2) فى وصف :

1 ـ الخطيب أبى عبد الله الساحلى المالقى

الولـــى ـ نفع الله بـــه (3)

عابد لا يفتر عن عبادة ، وولى ظهرت عليه أنوار سعادة ، لم يدع وقتا من عمره الا عمره ، ولا دوحا من الذكر الا جنى ثمره . فضربت

---

1) اسم الاشارة يعود على ما تضمنه مؤلف ابن الخطيب « الريحانة » ايضا .

2) يشمل القسم الاول من الاوصاف التراجم التى مرت من أول الكتاب الى هنا ، والتى اجتزاها المؤلف من كتابه « التاج المحلى » ، فى مساجلة القدح المعلى ، كما عبر عن ذلك فى البدايـــة .
راجع : مقدمة الكتاب ، (ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب) لوحة 1 . ب ، مخطوط الاسكوريال ، تحت رقم 1835 من فهرست الغزيـــرى .

اما «الاكيل» فهو أحد مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب التى ترجم فيها لبعض الاعلام من معاصريه ، أمثال شيخه ابن الجياب ، وابن مقاتل المالقى ، ومحمد بن على العبدرى ، وأبى القاسم العزفى السبتى ، وغيرهم فى هذا القسم مـــن « الاوصاف » . ويعتبر كتاب « الاكليل » مكملا لكتاب « التاج المحلى » للمؤلف ايضا ، وقد ورد بعده فى المخطوط رقم 554 الغزيرى بالاسكوريال ، ويشغل به من لوحة 117 م . الى 134 ب . وقد نقل المقرى منه بعضا فـــى التـــراجـــم .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 4 ص 446 ـ 447 ، وعنان فى كتابه : « لسان الدين ابن الخطيب » ص 251 .

3) هو الشيخ الخطيب الصالح أبو عبد الله محمد بن احمد الساحلى المالقى ، المتوفى عام 635 هـ ترجم له المؤلف ايضا فى كل من « الاحاطة » ، و « الكتيبة الكامنة » كما ترجم له الحضرمى فى فهرسه ، وابنه فى كتابه « بغية المسالك » انظر : نيل الابتهاج ص 235 (ط. فاس) والكتيبة ص 45 .

اليه الركائب أرباب السلوك ، وعظم فى قلوب الامراء والملوك . وخطب السفارة فى صلاح ذات البين ، واتصال أهل الدولتين (4) .

وأما الخطابة ، فكان من فرسانها ، وذوى احسانها ، يعبر عن الوقائع والاحوال بمختلفات الاقوال ، فى أسلوب جهير ، ومقام شهير .

وله خلف متسم بالخير والعفاف ، متصف من الديانة بأحسن الاوصاف .

ومن ذلك فى وصف :

2 – أبى جعفر الشاطبى (5)

الشيخ الفاضل أبو جعفر – رحمه الله – شيخ طالت مصاحبته

---

4) يعنى بالدولتين : المغرب والاندلس .

5) نسبة الى شاطبة Jatina احد القواعد الاندلسية زمن المسلمين ، وهى اليوم بلدة صغيرة ، وتقع على بعد خمسين كيلومترا تقريبا جنوب غربى بلنسية ، قرب البحر الابيض المتوسط ، وبينها وبين بلنسية بسيط اخضر جميل ، تحده الجبال من الجانبين ، ممتدا على ضفة نهر البيضاء Albaida أحد فرع نهر شقر . ويرجع تاريخ شاطبة الى العصر الفينيقى ، وفى العهد الرومانى امتازت المدينة بالازدهار ولبثت أيام القوط فى رخاء ، وفى العصر الاسلامى ازدادت أهمية ونشاطا الى أن استردها الاسبان بعد حصار مرير فى عهد الملك خايمى الاول عام 647 هـ (1249 م) . هذا وتشتهر شاطبة اليوم باديرتها وقصورها العتيقة ، وبحصنها الشهير باعلا ربوة فيها ، وتزدان المدينة بالميادين الاثرية ذات التماثيل والنافورات ، وتضاهى الى حد كبير فى طرازها الاثرى مدينة مرسية المعروفة ، ويعمر متحفها بمختلف الاجزاء الاثرية من العصر العربى خاصة .
أما المترجم له فهو الشيخ أبو جعفر أحمد بن عتيق الشاطبى ، من قدماء أساتذة الاندلس وقضاتها المعروفين بضبط الوثائق ، والبصر بعللها ، توفى ببرجة عام 743 هـ عن سن تناهز التسعين ، بعد عزله عن منصبه .
راجع : محمد عبد الله عنان فى (الآثار الاندلسية الباقية) ص 139 — 140 ، (القاهرة ط 2 سنة 1961 م) ونيل الابتهاج ، ص : 46 (ط. فاس) .

ومسكين ، وذبح بغير سكين (6) .
للانساء ، ومصابحته للاصباح والامساء . طالما نظر (84 . أ) بين قوى

يقضى عمره فى الحقوق ، ويهب بين الرعود والبروق . قطع فـــى ذلك ــ زمانه ، وند أقرانه . واكتسب مالا ، وبلغ فى الدهر آمالا ، ثم أوبقته (7) أشراك الحمام ، وكل شىء فالى تمــام .

وله شعر تلوح عليه ــ من الحسن ــ مسحة ، وتنم منه ــ للطرف ــ نفحـــــــــة .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

3 ــ الخطيب ابن علـــى القرشـــى (8)

شهاب فى أفق الدين متألق ، وسهم على فريسة النجاة ــ محلق ، وعارف ــ بأخلاق الرجال ــ متخلق . كثير الانقباض ، معرض عـــن الاعراض . كلف بما للقوم من المقاصد والاغراض . ملازم كسر بيته على ذكر يردده ، ولباس اخلاص على الاحيان يجدده ، وسهم بحث الى هدف تلك الاسرار يسدده . فاذا تردد الى المسجد الاعظم محل اقامته ،

---

6) اشارة الى الحديث الشريف ، « من افتى بغير علم ذبح بغير سكين » واذن فالكناية فى تعبير المؤلف تعنى ان المترجم له كان يتصدر للقضاء والفتوى .

7) فعله « وبق » كوعد ووجل ، والمصدر « وبوقـــا » ، و « موبقا » بمعنى الهلاك ، وأوبقـــه حبسه او اهلكه ، كذا فى اللسان والقاموس .

8) هو الشيخ الخطيب ابو على بن على بن عتيق بن احمد القرشى ارتحل وقصد الحج ولقى فى طريقه شيوخا اجلاء فاخذ عنهم وتولى الخطابة بالجامع الاعظم فى غرناطة فترة تربو على اثنتين وثلاثين سنة ، وقد ولع بالتصوف ــ ترجم له الحضرمى ، ونقل عنه صاحب ــ نيل الابتهاج ص 177 (ط. فاس) .

ومسحب غمامته ـ انثال (9) الناس على أطرافه ، فى قصده وانصرافه ، فتسعهم بشاشة لقائه ، وتحييهم بركة دعائه .

ومضى لسبيله صدرا من صدور الصالحين ، وعلما من عباد اللـه (84 . ب) المفلحين وكانت جنازته مثلا فى الاحتشاد لها والاحتفال ، وعنوانا على العناية من ذى الجلال .

ومن ذلـك فى وصـف :

4 ـ القاضى أبـى عمر بـن منظور (10)

صاحب نظر وبحث ، ومعاطاة لاكواس الفنون وحث . لا يزال يفى أديمها ، ويجمع حديثها وقديمها ، وهو أحد أعلام هذا القطر ، أولى المكانة الرفيعة والخطـر .

ولى قضاء رية (11) غير ما مرة ، فساس وسدد ، وأسس وجدد ، ومن سنن الفضلاء مـا جـرد .

الى مجلس ممتع ، وفهم الى الغوامض والعلوم مسرع ، ودعابة تنفلت من خلال وقاره ، وتغالب على مقداره .

---

9) انثال الناس على أطرافه ، كناية عن اقبالهم عليه فى تجلة واحترام ، لعلمه وفضلـه .

10) هو الشيخ القاضى ابو عمر عثمان بن محمد بن يحيى بن منظور القيسـى المتوفى عام 735 هـ ببلده مالقة ترجم له ابن الخطيب فى كل من الاحاطة وعائد الصلة ، ونقل عنه القاضى النباهى فى « المرقبة العليا » ص 147 .

11) احدى ولايات الاندلس القديمة من نواحى مالقة ، كان ينزل بها جند الاردن زمن الفتح العربـى .

وشعره قليل جدا ، لم يعركه هزلا ولا جدا . الا أننى رأيت بخطه أبياتا من نظمه على ظهر فهرسة الوزير أبى بكر بن الحكيم (12) .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

5 ـــ الخطيب ابن الطاهر بن صفوان المالقى

علم من أعلام هذه البقعة ، ورخ من رخاخ هذه الرقعة ، اقتفـــى أثر الصالحين واقتصه ، واقتدى بمن تولاه الله واختصه ، (85 . أ) فلو تمثل الخير لكان شخصه ظهرت عليه بركات مكة والمدينة ، فلبـــس شعار السكينة ، وتواضع على التربية المكينة ، وحصل من أسرار القوم على الدرر الثمينة . فكان يتكلم على مصنفاتهم ، ويتصف بصفاتهم ، فيأتى بالعجائب فى فـــك تلك الرموز وايضاحها ويتحف منهـــا الصدور بانشـــراحهـــا .

---

12) ذكر ابن الخطيب 8 « الكتيبة » ان كتاب هذا الوزير يسمـــى « الفوائـــــد المنتخبة ، والموارد المستعذبة » .

أما الابيات التى نظمها ابن منظور فى ظهر الكتاب فنصهـــا :

قد جمـــع الحكـــم وفصل الخطـــاب ... مـــا ضمه مجمـــوع هـــذا الكتاب

مـــن أدب غـــض ومـــن علـــــــة ... فتسابقـــوا للخيـــر فى كـــل بـــاب

فجـــاء فـــذا فى العـــلا والنهـــى ... ومنتقنـــى صفـــو لبـــاب اللبـــاب

ألفـــه الحبـــر الجليـــل الـــذى ... حـــاز العـــلا ارثـــا وكسبا فطـــاب

هذا ، والوزير أبو بكر الحكيم هو الكاتب ابن ذى الوزارتين ابى عبد الله بن الحكيم ، توفى عام 750 هـ وقد ترجم له ابن الخطيب فى « الاحاطة » ج 2 ص 99 ــ ، كما ترجم له كذلك فى « أوصاف الناس »

13) هو الشيخ محمد بن أحمد بن حسين بن صفوان القيسى المالقى ، ترجم له المؤلف ايضا فى « الكتيبـــة » 54 .

حضرت معه غير ما مرة فراقنى محضره ، وبهر فى تلك المعانى نظره . وله نظمه ــ رحمه الله ــ وكان لا ينتحل النظم ولا يتعطاه ، ولا يحث فيــه خطــاه (14) .

ومن ذلــك فى وصــف :

6 ــ الشيخ أبى عبد الله الطرطوشى (15)

معدود فى الصدور ، ومنظوم فى الشذور ، ومسحوب فيمن أطلعته آفاق هذه الدور ، من النجوم المشرقة والبدور . ينظر فى معقول ومنقول ، ويستظهر على المشكلات بفرند وذهن مصقول الى خط وظرف ، وفكاهة كالروض فيمن رأى وعرف ، ترقى للبــر سناما ، ولقى من الدولــة

---

14) ينعى عليه انه لا يبدى جهدا يتناسب وقرض الشعر الجيد .

15) نسبة الى « طرطوشة » Tartosa احدى المدن الاسبانية الواقعة على نهر « ابــرو » الذى يشق ولاية اراجون فى الشمال ، تحيط بها الجبال عن بعد ، ويشقها هذا النهر الى قسمين ، وهى ذات بسيط من الحدائق والحقول النضرة ، والغابات الكثيفة من النخيل . وتوجد بأطرافها اطلال القلعة القديمة سقطت طرطوشة فى ايدى النصارى عام 543 هـ (1148 م) بالتسليم صلحا ، وتوجد بكنيستها الآن لوحة حجرية اسلامية مربعة تقريبا بمساحة نصــف متر ، ذات نقش عربى ما زال معظمه باديا ونصــه :
« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشــاء هذه الدار عدة للصناعة والمراكب عبد الله بن محمد بعون الله ونصره فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، وكتب عبد الله ابن كلــب » .
نسب الى هــذه المدينة ابــو بكر الطرطوشى صاحب كتــاب « ســراج الملوك » المتوفى عام 520 هـ (1126 م) ، وبها مرصد طرطوشة المشهور ، كما أن للمدينة تاريخها العلمى الثقافى منذ العصر الاسلامى .
راجع . عبد الله عنان فى « الاثار الباقية فى الاندلس » ص 120 ــ 122 .

النصرية (16) (85 . ب) اكراما الى أن فسد ما بين مدبرها ابن المحروق وبينه ، ونميت له عنه هنات أو غرت صدره ، وأقذت عينه ، فغربه (17) بعدما قربه ، وجفاه من بعد ما اصطفاه فجـم فى الاغتراب ـ حينـه ، واقتضى ببعض البلاد الافريقية دينه .

وكان لا ينتحل الشعر بضاعة ولا يعول عليه صناعة . وربما رمى غرضه فأصاب واستمطر له غمام معارفه فصـاب .

ومن ذلـك فى وصـف :

7 ـ الفقيـه ابن عبد الله بن الحـاج
مـن أهـل مـالقـة

شاعر اتخذ النظم بضاعة ، وما ترك السعى فى مذاهبه ساعـة أجرى فى الملاء لا فى الخلاء ، وجعل دلوه فى الدلاء ، وركض فى حلبـة النجباء والنجائب ، ورمى بين الخواطى بسهم صائب . فخرج بهرجه ونفق، وارتفد ـ بسببـه ـ وارتفـق .

وهو الآن ـ قد سالمته السنون ، وكأنها أمن المنون ، وهو رجل مكفوف الاذى ، حسن الحالة اذا هذى ! !

---

16) الدولة النصرية ، آخر دولة للمسلمين بالاندلس ، وتعرف أيضا بدولة بنـى الاحمر ، وقد حكمت مملكة غرناطة ما يربو عى مائتين وخمسين عاما (635 ـ 897 هـ = 1238 ـ1492 م) مؤسسها محمد بن يوسف ابن الاحمر ، وآخر ملوكها أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن يوسف النصرى .
راجع : « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ص 16 ـ 21 للمحقق (القاهرة 1968 م) .

17) غربه ، بتشديد الراء يعنى . ابعده عن مجلسه ، وربما عن البلاد .

ومن ذلك فى وصف :

8 ـ الشيخ الوزير على بن غفرون

(68 . أ) شيخ خدم ، قام له الدهر فيها على قدم ، وصاحب تعريض ، ودهاء عريض ، وفائز من الدولة النصرية بأياد بيض .

أصله من حصن منتفريد (18) حرسه الله . خدم الدولة النصرية عند انتزاء أهله ، وكان ممن استنزلهم من حزنه الى سهله ، وحكم الامر العالى فى يافعه وكهله . فاكتسب حظوة أرضته ، ووسيلة أرهقته وامضته ، حتى عظم جاهه وماله ، وبسقت آماله . ثم دالته الدول وتنكرت أيامه الاول، وتغلب من يجانسه، وشقى بين (من) كان ينافسه، فخفف عوده والتاثت سعوده ، وهلك والخمول يعله ، والدهر يقوته من صبابة حرث كان يستغله.

وكان له شعر لم يثقفه النظر ، ولا وضحت منه الغرر ، كتب الى السلطان أمير المسلمين منفق سوق خدمته ومتعهده بنعمته ، يطلب تجديد بعض غاياته ، ما ثبت فى الكتاب المذكور (19) .

ومن ذلك فى وصف :

9 ـ الوزير الكاتب أبى عبد الله بن غيسى (20)

(86 : ب) من أعلام هذا الفن ، ومشعشعى هذه الدن ، مجموع أدوات، فارس براعة وذوات. ظريف المنزع، أنيق المرأى والمسمع. اختص بالرياسة فأدار فلك امارتها ، واتسم باسم كتابها ووزرائها ، ناهضا

(18) منتفريد Monteferio مدينة اندلسية صغيرة ، موقعها شمال مدينة لوشة .

(19) يشير الى كتابه « الإكليل الزاهر » السابق الاشارة اليه فى بداية القسم الثانى من « الاوصاف » .

(20) هو الكاتب الوزير ابو عبد الله محمد بن محمد بن عيسى الحميرى . تحدث عنه المؤلف كذلك فى « الكتيبة » ص 158 ــ 162 ، تحت عنوان « طبقة من خدم ابواب الامراء من الكتاب والشعراء » مشيرا الى ان هذه الطبقة متميزة من بين الادباء ، موردا له امثلة من شعره .

بالاعباء ، راقيا فى دوح التغريب والاجتباء ، مصانعا دهـره فى راح وراحة ، آويا الى فضل وسماحة ، وخصب ساحة . فكلما فرغ من شأن خدمته ، وانصرف عن رب نعمته ــ عقد شربا ، وأطفا ــ من الاهتمام بغير الايام ــ حربا . وعكف على صوت يستعيده وطرف يبديه ويعيده فكلما تقلبت بالرياسة الحال ، وقوضت منها الرجال ــ استقر بالمغرب قريبا ، يقلب طوقا (21) مستريبا وتنحط الدنيا تبعة عليه وتثريبا ، وان كان لم يعدم من أمرائها حظوة وتقريبا . وما برح يبوح بشجنه ، ويرتاح الى عهـود وطنـه .

ومن ذلـك فى وصـف :

10 ــ الكاتب أبى بكر بن العريف

بقية الظرفاء مـن ديوان الحساب : أى نفس صافية من الكـدر (87 : أ) وصدر طيب الورد والصدر . ودوحة عهد تندى أوراقها ، ومشكاة فضل يستطيع اشراقها . تمسك برضاع الكأس ، يزى ذلك من حسن عهده ، وقسم لحظاته بين آس الرياض وورده . فلما حوم حمامه للوقوع ، وكاد يقوض رحله عن الربوع وشعر بحبائل المنية تعتلقه ، وسرعان خيل الاجل ترهقه ــ أقلع عن فنه ، وأمر بسفك دنـه . ولجأ الى الله بأوبته ، وضرع الى الله فى قبول توبته وغفران حوبته فكـان ذلك عنوان الرضا ، وعلامة عفـو الله عما مضى :

دخلت عليه فى مرضه ، وأشرت باستعمال الدواء المسمى بـ : «لحية التيس » عند الاطباء ، واستعمله ، فوجد بعض خفة فأنشدنى فى ذلك من نظمه مـا ثبت فى الكتاب المذكور .

(21) فى نسخة اخرى . « طرفا » وهو الاوفق .

* تجدر الاشارة الى ان لابن الخطيب مؤلفات فى الطب اشهرها كتاباه : « عمل من طب لمن حب » ، « الاصول فى حفظ الصحة فى الفصول » عدا رسائل صحية متفرقـــة .

ومن ذلـك فى وصـف :

11 ـ الشيخ أبى عبد الله المتأهـل

كثيف الحاشية معدود فى جنس السائمة والماشية (87 . ب) تليت على العمال به سورة الغاشية (22) تولى الاشغال السلطانية ، فذعرت الجبال لولايته ، وقامت قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كـل القنوط ، وقالوا . جاءت الدابة تكلمنا وهى احدى الشروط (23) من رجل صائم الحشوة ، بعيد عن المصانعة والرشوة . يتجنب الناس ، ويقول المخاطبة لامساس ، وعلى مساحته ونجهه ، وتجهم وجهه . كان خالطا اساءته باحسانه ، مشتغلا بشانه ، غاضا من عنـان لسانـه .

عهدى بـه فى الافعال يقدم فيها ويدبر ، ويترجم ويعبر ويحبط ويتبر وهو مع ذلك يكبر ، ويحسن من الازمة ويقبح ، وهو يسبح . ولما شرع فى البحث والتنقير ، والمحاسبة على القطمير والنقير ـ أتـاه قاطع الاجل ، فحث ركابه بأقصى العجـل .

وصدرت عنه أبيات خضم فيها وقضـم ، وحصل تحت القـدر المشترك مع من نظـم .

ومن ذلـك فى وصـف :

12 ـ الشيخ أبى عبد الله بن ورد

(122 : أ) لودن حلبة الآداب ، وسنور عبد الله بيع بقيراط لما شاب . هام بوادى الشعر مع من هام ، واستمطر منه الجمام . فجاء بأبيات أوهن من بيت العنكبوت نسجا ، ومقاصد لا تبين قصدا ولا نهجا . وله بيت معمور بقضاة أكابر فرسان أقلام ومحابر . وعمال قادوا الدهر

بأزمة أزمتهم ، وقرعوا الزهر بهمتهم . وتكاثرت عليه ــ رحمه الله ــ الاحن ، ومقاومته المحن . وتصرف آخر عمره فى بعض الاعمال المخزنية . فتعلل بنزر القوت ، الى الاجل الموقوت .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

13 ــ « الشيخ أبى عبد الله العراقى الوادى آشى »

معدود ــ فى وقته ــ من أدبائـــه ، ومحسوب فى أعيان بلـــده وحسبائه . كان رحمه الله من أهـــل العدالة والخير ، سائرا علـــى منهج الاستقامة أحسن السير . وله أدب لا يقصر عن السداد وان لـــم يكن بطلا فمن يكثر فى السداد .

وقد أثبت له ما عثرت عليه مما ينسبه الناس اليـــه .

14 ــ «أبى جعفر الجوال المالقى »

معتر غير قانع ، ومنتجع كل شهم ويافع . نشأ ببلده بمالقة . أبرع من أورد ليراعه فى نفس ، وهز غصنها فى روضة طرس . الا مـــا كان من سخافة عقله وقعوده تحت المثل أخبر نقله . لا يرتبط الى رتبة ، ولا ينتمى الى عصبة ، ولا يتلبس بسمت ، ولا يستقيم من أمت .

أخبرنى من عنى بخبره ، وذكر عبره ، من صباه الى كبره ، أنه رشح فى بعض الدول ، وعرض لاكتساب الخيل والخول ، وخلعت عليه كسوة فاخرة ، وشارة بزهر الرياض ساحرة ، فانقاد طوع حرمانـــه ونبذ صفقة زمانه . وحمله فرط النهم على أن ابتاع فى حجرها طعاما

كثير الدسم . وأقبل وأذياله منه تقطر كما اختلفت باللبن الاشطر . فطرد ونبذ وطرح بعدما جبل .
لقيته بمالقة وقد تغلبت عليه زمانه ، وسقطت فى يديه فانتابنى بأمداحه ، وتعاورنى بأجاجه وقراحه .

(123 : أ) ومن ذلك فى وصف :

15 — « أبى الحسن الدراد المالقى »

أديب نار فكره تتوقد ، وأريب لا يعترض كلامه ولا ينتقد . أما الهزل فهو طريقته المثلى ، ركض فى ميدانها وجلى ، وطلع فى أفقها وتجلى ، فأصبح علم أعلامها ، وعابر أحلامها . ان أخذ بها فى وصف الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألم بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله ، والروض وطيبه ، والغمام وتقطيبه — شق الجيوب طربا ، وعل النفوس أريا وضربا . وان أشفق لاهتلال العشية ، فى فرش الربيع الموشية ، ثم تعداها الى وصف الصبوح ، وأجهز على الزق المجروح ، وأشار الى نغمات الورق ، يرفلن فى الحلل الزرق ، وقد اشتعلت فى عنبر الليل نار البرق ، وطلعت بنور الصباح فى شرفات الشرق — سلب الحليم وقاره ، وذكر الخليع كاسه وعقاره ، وحرك الاشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونها . بلسان يتزاحم على موارد الخيال ، ويتدفق من حافاته (123 : ب) الادب السيال . وبيان يقيم أود المعانى ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المبانى ، ويكسو حلل الاحسان جسوم المثالث والمثانى . الى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة يجنى بها الشهد ويشار .
وقد أثبت من شعره المعرب — وان كان لا يتعاطاه الا قليلا ، ولا يجاوره الا تعليلا — أبياتا لا تخلو من مسحة جمال على صفحاتها ، وهبة طيب ينم فى نفحاتها .

ومن ذلــك فى وصــف :

16 — الاديب أبى الاصبع عزيز بن مطرف

ظريف السجية ، كثير الاريحية . من لورقة فتحها الله ، واتخذ المرية دارا ، وألف بها استقرار ، الى أن دعاه بها داعيه ، وقام فيهــا ناعيــه ، رحمه الله .

أنشدنا الحكيــم أبو عبد الله بن حبينى المروى من شعره ، قال : أخذته عمن ينشده ، فقلت : به الثقــة .

ومن ذلــك فى وصــف :

17 — الاديب أبى عبد الله بن فضيلة

(124 : أ) شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه — كما قيل فى نفس المومن — هينة . ينظم الشعر عذبا مساقه ، محكما اتساقه . على فاقة ، وحالــة مالها من افاقة . أنشد المقام الكريم بظاهر بلده قصيدة استغرب منه منزعها ، واستعذب — من مثله — مشرعها .

ومن ذلــك فى وصــف :

18 — أبى القاسم الورشيــدى

من أيمة أهل الزمام ، خليق برعى المتات والذمام ، ذو حظ كما تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام . كان ببلده — رحمه الله — بدر اشراقة محاسبا ، درا فى لجة الاغفال راسبا . صحيــح

العمل يلبس الطروس من براعته أسنى الحلل . وله شعر لا بأس به ، ولاخفاء بفضل مذهبــــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

19 — ابى الحجاج بن مرزوق الرندى

خير استبق الى داعى الفلاح استباقا ، وانتمى الى القوم الذين هم فى الآخرة أطول أعناقا ، وان كانوا فى الدنيا أضيق (124 : ب) أرزاقا مردد أذكار ، ومسبح أسحار ، وعامر مئذنة ومنار . كان ببلده مؤذنا بجامعها ، وموقتا بأم صوامعها . ومعتبرا فيمن كان بها من السدنة . وممن يشمله قوله : فكأنما قرب بدنه . وله لسان مخيف ، وشعر سخيف . توشح بحليته ، وجعله وسيلة كربته .

ومن ذلــك فى وصــف :

20 — القاضى أبى بكر بن منظور

عظيم الهشة حسن اللقاء ، أغرب فى حسن المدارات من العنقاء . استمر عمره بتسديد للحكم ، وصبر على حجج الصم والبكم . وأفرط فى شدته وهزته ، وتنزل عن نخوة القضاء وعزته . وله سلف فى القضاء عالى المراقب ، مزاحم للنجم الثاقب .

وقد أثبت من شعره ما تيسر اثباته . ونجم بروض هذا المجموع .

ومن ذلــك فى وصــف :

21 — القاضى أبى جعفر بن برطال

قاض توارث كل جدالة ، لا عن كلالة . ومجمع فى العلم الحسب ، بين الموروث والمكتسب ، أشرف بجيد معم فى (125 : أ) العشيرة مخول ، وألقت اليه مقاليدها من منقول ومتأول . الى نزاهة لا تعرف

البيضاء ولا الصفراء ، وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستفزه الاغواء . ووقار يستخف الجبال الراسية ، ونظر يكشف الظلم والغاشية .

تولى قضاء الحضرة فأنفذ الاحكام وأمضاها ، وشام سيوف العدالة وانتضاها ، ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نضاها ، وسلك الطريق التى اختارها السلف وارتضاها . فاجتمعت الاهوال المفترقة عليه ، وصرف الثناء أعنة الالسن اليه . ثم كر الى بلده ، واستقر خطيبا بقرارة أهله وولده .

ومن ذلك فى وصف :

22 — الفقيه أبى عامر بن عبد العظيم

منتم الى معرفة ، متصف من الذكاء بأحسن صفة . أقرأ ببلده علم اللسان ، وما حاد عن الاحسان . وعانى الشعر فنظم قوافيه ، وما تكلف فيه . وعلى غزارة مادته (125 : ب) ووضوح جادته . فشعره قليل البشاشة ، ذاهب الحشاشة ، وذو الاكثار كثير العثار ، وله سلف يخوض فى الحقايق ، وينتحل بعض الكلام الرايق .

ومن ذلك فى وصف :

23 — الفقيه أبى عثمان الغلق

متسم بدين وعفة ، آو الى نفس بالغرض الادنى مستخفة . ممن ينزع الى سلوك ورياضة ، ويفيض فى طريق القوم بعض افاضة .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

24 ـ ابى عثمان بن عثمـــان

ممن يتشوف الى المعارك والمقالات ، ويرتاح الى الحقايـــق والمحالات . ويشتمل على نفس رفيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة . ويعانى من الشعر ما يشهد بنبله ، ويستطرف من مثله .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

25 ـ المقرى أبى القاسم الجرارى

مشمر فى الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحذاق . منتحل للعربية ، جاد فى احصاء خلافها ، ومعاطاة سلافها . وربما شرست فى المذاكرة أخلاقه ، اذا بهرجت أعلاقه ، (126 : أ) ونوزع تمسكـــه بالحجة واعتلاقه . ورحل الى المغرب ، فاستجدى ـ بالشعر ـ سلطانه ، ثم راجـــع أوطانـــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

26 ـ الفقيه الصوفى أبى جعفر العاشق

منتم الى زهد ، باذل فى التماس الخير كل جهد . نظمه لا يخلو من حلاوة ، ومعانيه فى طريقه عليها بعض طـــلاوة .

ومن ذلــك فى وصـــف :

27 — أبى القاسم الساحلـى

كاتب سجلات ، لا يساجل فى صحة فصولها ، وتوقيع فروعها على أصولها . وكلما طلب بالنظم القريحة ، وأعمل الفكرة الصريحة ، مـع اقلاله ، وعدم استعماله — أجابت ولبت ، وتنسمت رياحها وهبــت .

ومن ذلــك فى وصـــف :

28 — أبى القاسم عبد الله بن أبطيح

عدل ، وممن له وقار وفضل . متسم بخير ، مشتمل بصفـات مرضية ، يلم بالنظم فى الطريقة الصوفية .

ومن ذلــك فى وصـــف :

29 — أبى الحسن على بن عبد العزيز بن قيس

(126 : ب) ممن يركض مركب الطيش ، ويأوى بعد الجهد الى شظف العيش . منقبض عن الخلق ، سالك من التعيش بالتعليم أفضـل الطرق . لا يعدم مع ذلك حملا عليه ، وتسببا بمواجدة اليه .

قصدنى — وقد نبا به الوطن ، وضاق منه — للتغرب — العطن — يطلب منى شفاعة الى بعض القضاة ممن كان يطلبه ، ويقبل فيه شهادة من يثلبـــــه .

ومن ذلـك فى وصـف :

30 — أبى الحسن السالك الغرناطى

متسور على بيوت القريض ، فى الطويل من الكلام والعريض ، جامع منها بين الصحيح والمريض . ممن أطاعته براعة الخط ، وسلمت لقضب أقلامه رماح الخط . عانى كتابة الشروط الاول أمره ، ولحقته محنة دهره . وهو — الآن — يشهد من الامور المخزنية فى بعض الالقاب ، ويلازم دار الحسـاب .

ومن ذلـك فى وصـف :

31 — الوزير أبى جعفر بن المدانى

صاحب طبع يحثه ، وشجو لا يزال يبثه وباطن متوقد ، (127 : أ) وفكر لزوايا الفنون متعقد خدم فى كبار الاعمال . وقاد أزمة الاموال ، وترقى فى البساط السلطانى رتبا رفيعه المنال . ولسلفه فى الخدم العملية الاشتهار ، والبراعة الواضحة كما وضح النهار .

وشعره واضح السهولة ، جار على المآخذ المقبولة .

ومن ذلـك فى وصـف :

32 — الحاج أبى عبد الله الشديد

شاعر مجيد ، حولى الكلام . ولا يقصر فيه عن درجات الاعلام . رحل الى الحجاز لاول أمره وجدة عمره . فطال بالبلاد المشرقيه ثواؤه ،

وعميت أنباؤه . وعلى هذا العمل وقفت على قصيدة بخطه ، عرضها نبيل، ومرعاها غير وبيل . تدل على نفس ونفس ، واضاءة قبس .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

33 — أبى الحسن الرعينـــى

يخوض فى الادب ، ويتمسك منه ببعض السبب ، وعن مثله واضح المذهب ، وهو رجل صالح ومذهبه فى الفضل (127 : ب) واضح .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

34 — « الفقيه الخير أبى عبد الله الشكاز الاندرشـــى »

لبق ذكى ، طبعه غير بكى ، سكن البادية اماما ، وأم بها أعواما ، واه فى ذلك مقامة ، حلته من الظرف مقامـــا ، واستوفت من الذكـــاء أقســـــامـــــــا .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

35 — العدل أبى عبد الله القطان

ممن نبغ ونجب ، وحق له البر بذاته ووجب . تجلى بوقـــار ، وشعشع للادب كاس عقار ، الا أنه اخترم فى اقتبال ، وأصيب للاجله بنبـــــال .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

36 — الوزير أبى عبد الله بن سلبطور

مجموع شعر وخط ، وذكاء عن درجة الظرفاء غير منحط ، الى مجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحى والميت (128 : أ) نشأ فى جحـــر

الشرف والنعمة ، محفوفا بالمالية الجمة . فلما عقل عن ذاته ، وترعرع بين لذاته ، ركض خيول لذاته ، فلم يدع منها ربعا الا أقفره ، ولا عقارا الا عقره ، حتى حط بساحلها ، واستولى بسفر الانفاق على جميـــع مراحلها ، الا أنه خلص بنفس طيبة وسراوة سماؤها صيبة ، وتمتع مــا شاء من زير ويم ، وأنس لا يعطى القيادة لهم ، وفى عفو الله سعة ، وليس مع التوكل عليه صعــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

37 ــ العدل أبى عبد الله بن مشتمل البلياني

ممن يعد ويحسب ، وينمى الى الفضل وينسب ، أدواته بارعة ، وخصاله فارعة ، من خط طريف ، وأدب وتأليف .

ومن ذلــك فى وصــف :

38 ــ المؤلف أيضا رضى الله عنه

سلمان * انتسابى ، وبالمعارف الادبية اكتسابى ، والى العلوم قــد نشأ ارتياحى ، وفى حلبة أرباب النظر مغداى ومراحى (128 : ب) على نهاية من ترف النشأة ، وغر البدأة ، الى أن اشتملت على الدولة النصرية اشتمالة ، ونظمتنى بين بدورها الكوامل هلالا ، فسموت فى رتب اعتنائها . حالا فحالا ، وتأثلت ما شئت جاها ومالا ، وجعلت مشاركة الخلق ثمالا . فأنا اليوم ولله ولها الحمد عطارد فلكها ، وزبرقان حلكها ، ودليل مسلكها . أقوم بين يدى سريرها والوفود قعود ، وأجلوا الغيم عن شمسها والجو بروق ورعود ، وأبادر نداءها ان كانت هيعة ، وأمسك منها اليمين ان همت بتجديد بيعة ، فمن اختال فى حلل هذا التشريف

* سلمان : بلدة فى اليمن ، نزحت منها أسرة المؤلف ، حيث استقرت بالاندلس .

غنى عن التعريف ، وأما شعرى فى امتداحها فمثل سائر ، وطائر فـــى الآفاق ميمون الطائر ، وأما كتابتى عنها فأبهى من وجوه البشائر ، وأحلى من الشهد فى يد الشائر . نستغفر الله ، فهذا مقام من نأى عن جنسه ، ورضى عن نفسه ، كم دون ذلك من تقصير يبدو لعين نافذ بصيـــر ، ستر الله عيوبنا وبلغنا (129 : أ) من كمال السعادة الابدية مطلوبنـــا بمنـــــــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

39 — أبى عبد الله بن سلمة الكاتب

فارس خصال حميدة ، وراشق الى هذه الاصابة بسهام سديدة ، فان جلى فى المهارق احسانه ، أو أعمل فى الرقاع بيانه ، حسد عطارد ظرفه ، وحدق المشترى الى تلك البضاعة طرفه .

دعى الى الكتابة فاقتعد مطاها ، وأدار كئوسها وعاطاها ، ولم يزل يجيل جياده فى كل ميدان ، ويبدى من براعته ما ليس لسواه بمثله يدان ، حتى تأود دوحه ، وتعطر روحه . ثم رمل بعدما ثوى ، وأحدث عقب ما نوى ، وجنح الى خطة الاشراف ، فحمل وما أجمل ، وأغفل خطة الحزم ومـــا تأمل ، وأهمل سنن الاشراف فيما أهمل . وألجاه ضيق عطنه الى فراق وطنـــه .

وينتحل شعرا يسطع أرجه ، ويسمو منعرجـــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

40 — أبـــى بكـــر بـــن مقاتل *

خلف وبقية ، ونابغة مالقية ، ومغربى الوطن أخلاقه (129 : ب) مشرقية . أزمع الرحيل الى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق

---

* سبق ان ترجم له المؤلف فى القسم الاول (40) مع خلاف لا يكاد يذكر فى بعـــض التعبيـــــرات .

فلما توسطت السفينة اللجج ، وقارعت الثبج ، هال عليها البحر فسقاها كاس الحمام ، وأولدها قبل التمام . وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره سوادها ، جملة من الطلبة والادباء ، وأبناء السراة الحسباء . أصبح كل منهم مطيعا لداعي الردى وسميعا ، وأحبوا فرادى وماتوا جميعا . فملأوا الضلوع حزنا ، وأرسلوا العبرات عليهم مزنا . وكان البحر لما طمس سبل خلاصهم وسدها ، وأهال هضبة سفينتهم وهدها ، غار لدررهم النفيسة فاستردها .

والفقيه أبو بكر ــ مع اكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ــ لم أظفر من أدبه الا بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه .

ومن ذلــك فى وصــف :

41 ــ أبى عبد الله الشريشى

طالب نبيل ، لا يلتبس من مذاهبه سبيل . أبوه وراق هذه الاقطار ، التى طار اشتهارها كل المطار ، فقلما نجد بليدا (130 : أ) مذكورا ، بل بيتا معمورا الا وبه من خطه شىء معروف ، ان لم تلف منه صفوف أو ألوف . ونشأ ابنه طالبا ذكيا . وفطنا لوذعيا ، وفاضلا سريا .

ومن ذلــك فى وصــف :

42 ــ أبى عبد الله اللــؤلــؤة

فاضل منقبض ، مضطلع بحبل الرواية منتهض . رحل الى الحجاز الشريف ، وهو اللؤلؤة لفظا ومعنى . وتجمل فى العناية بالرواية وتعنى ، وكلف بها كلف قيس بلبنى ، حتى هصر منها كل المجنى ، وظهرت عليه بركة مقصدها الاسنى . وآب الى بلاده . وهو خلق جديد ، وظل عفافه

عريض مديد ، فاجتلب من الفوائد الشرقية ، والطرف المأثورة عمن لقى من البقية ، ما أوجب له نيل المزية ، ونبل الرحلة الحجازية .

ولم يلبث أن هلك بحصن قمارش بلد أهله ، وخبت أنوار فضلـــه ، رحمـــه اللـــه .

من ذلـــك فى وصـــف :

43 — أبى عبد الله بن خاتمـــة

حسن الشيمـــة ظريفها . مقبول النزاعـــة طريفها . لبيتـــه فى (130 : ب) خدام الجباية شهرة ذائعة ، ونهاية شائعة ، فهم فرسان الازمة ، وقوام تلك الامور المهمة . حاد عن طريقتهم ، ومال عن مرافقة فريقهم ، وجنح الى العدالة ، وأنف من الادالة . فتحلى بالخيريـــة وتوشح ، وترقى بسببها وترشـــح .

من ذلـــك فى وصـــف :

44 — أبى يحيى بـــن داود

متحل من الحياء والعفاف ، بأحسن الحلى والاوصاف ، مستظل من فضل سلفه بروح دانى القطاف . أبوه ــ رحمه الله ــ شيخ العمال ، الذى لا يدافع عن منقبة جليلة ، ولا يزاحم فى باب مأثرة جميلة ، وجاء ولده هذا جاريا على عقبه ، سالكا على السبيل الاليق به ، لولا أن الحمام اخترمه سريعا ، وأذبل منه غصنا مريعا .

من ذلــك فى وصــف :

45 ـــ أبى عبد الله بن البقــاء

هشوش مقبول ، متخلق حمول ، ووعده بالمشاركة مفعول . تعرض بالباب العلى واقتحم ، وتقدم فما أحجم ، وأنشد قصيدة (131 : أ) أحكم ايرادها بصوت شج ، ونغمة لباس حسنها غير رث ولا منهج . فوقع عليه القبول ، وتسنى له من النعمة المأمول . واتصل له ذلــك فصحلت حاله ، ونجحت آماله . وعلى كونه لو كان شعرا لكان من شواهد بيت الخفيف ، أو مثلا لكان حجة الاهوج على الحصيف . فهو ـــ من أهل الذكاء ـــ معدود ، وله ـــ فى السراوة والمشاركة ـــ مذهب محمود .

من ذلــك فى وصــف :

36 ـــ أبى عبد الله الطشكــرى

كهام الحد ، ملقى عند العد . جهد أن يلحق فقصر باعه ، ونبت طباعه ، ولا يخلو ـــ مع ذلك ـــ من نبل وانقباض ، وذكاء فى بعــض أغـــــراض .

من ذلــك فى وصــف :

47 ـــ أبى عبد الله بن مشرف

ممن يمت بحسب ، ويرجع الى نظم وأدب . وينتحل ـــ علــى ضعف الادوات ـــ شعر رائقا ، وبالطلبة الغـــر لائقــا .

من ذلــك فى وصــف :

48 — أبى جعفر أحمد بن رضوان بن عبــد العظيـــم

(131 : ب) شاعر طبع ، وعامر حى — من الادب — وربع . حجة من حجج الغزائر ، فى العالم الحائر . يتدفق تدفق الفرات ، ويتبع الفرات ، ويتتبع المعانى كأنما يطلبها بالترات ، فيأتى بكل عجيبة ، وينتج البديع بين طبع فحل وفكرة نجيبة ، ويتلقى داعى البيان بنفس سميعة مجيبة ، من غير اقتناء لادواته ، ولا اعتناء بذاته . الا أنه يلابس أرباب الطلب ، فربما حصل مما يريد على الارب .

من ذلــك فى وصــف :

49 — أبى عبد الله بن هانـــى

جملة حسب ووقار ، وبراعة تمد اليها المهارق كف افتقار . نظمته الدولة اليوسفية فى سمط كتابها ، وأظلته بظل جنابها ، وطلب لهذا العهد نفسه بالادب ، وتمسك منه بالسبب . فصدر عنه من ذلك ما يستخرث على البداية ، ويدل — ان استتب — على فضل النهاية .

من ذلــك فى وصــف :

50 — الكاتب أبى عمرو بن زكرياء

يتوسل فى الكتابة ، ويكافح منها بحدين ، ويستند من الجهتــين اللوشية والمرابطية الى مجدين . وأما أبوه (132 : أ) — رحمه الله —

فحظه زين الزين ، وطرفة النفس وقرة العين ، فان نجب ونهض ، فهو عرق نبض ، ، وان جنح الى قصور ، فغير معذور .

من ذلــك فى وصـــف :

51 — الحاج أبى العباس الفراق

لسان بالشعر يهتف ، ويد بالكدية تنتف لا يبالى ألبس من القول جديدا أورثا ، أو كان سمينا من الشعر أو غثا ، أو نظم بسيطا أو مجتثا . انما مهمته فى قافية حاضرة ، وخواطر منه خاطرة ، وسماء نوال ماطرة . ومع ذلك فخفيف الجانب ، سهل المذانب . يخوض من فروع الفقه لجه . ويوضح منها حجــــة .

مدح بهذه الابواب كدا ، وتعرض وتصدى ، وكتب عن الامراء فما حاد عن السنن الحســـن ولا تعـــدى .

من ذلــك فى وصـــف :

52 — الكاتب أبى العباس المليانى

صاحب العلامة بالمغرب ، الكاتب الفاتك ، والصارم الباتر . أى اضطراب فى وقار ، واهتضام للعظائم واحتقار ، وغنى فى افتقار ، وتجهم تحتـــه أنـــس العقــــار .

اتخذه ملك المغرب (132 : ب) صاحب علامته ، وتوجه تـــاج كرامته . وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثار عمه ، ويطوقهم دمه بزعمه ، ويقتصر على الانتصار منهم بنات همه ، اذ سعوا به حتـــى أعتقل ، ثم جدوا فى أمره حتى قتل . فترصد كتابا الى مراكش يتضمن

أمرا جزما ، ويشتمل من أمور الملك عزما ، جعل فيه الامر بضرب رقابهم ، وسبى أسبابهم ، ولما أكد على حامله فى العمل ، وضايقه فى تقدير الاجل ، تأنى حتى علم أنه وصل ، وأن غرضه قد حصل ، وفر الى تلمسان وهى بحال حصارها ، واتصل بأنصارها ، حالا بين أنوفهـــا وأبصارها . وتعجب من قراره ، وسوء اغتراره ، ورجمت الظنون فـــى آثاره . ثم اتصلت الاخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، فتركها شنيعة على الايام ، وعارا فى الاقاليم على حملة الاقلام . وأقام بتلمسان الى أن حل مخنق حصرها وأزيل هميان الضيقة عـــن حصرها ، فلحق بالاندلس ولم يعدم برا ورعيا (123 : أ) مستمرا ، حتى أتـــاه حمامه ، وانصرمت أيامه .

من ذلـــك فى وصـــف :

53 — أبى اسحق بن سعيـــد

مقدور عليه ، محفوف بالحاجة من خلفه ومن بين يديه . من رجل يهتف باضطلاع العلوم ، ويهدر بالشعر هدر المحموم ، ثقل حتى خف ، وكثف حتى شف . الا أنه لا ينقبض من بسط ، ولا يلقى جعد المزاج الا بخلف سبط . ولم يكن خلوا من فائدة يلقيها ، وطرفـــة ينتقيها ، وأفادته الرحلة الحجازية لقاء أعلام ، ومصابيح اظلام ، كان يطرف بمحاسنهم المجالس ، ويفصح بأنوارهم النهار الشامس .

وله سلف صالح ، وأدب ضعفه واضح .

من ذلـــك فى وصـــف :

54 — أبى العباس أحمد بن عبد الحق

قدم الاندلس عربى المرمـــى ، بادسى المنتمـــى ، يتعاطـــى الادب والتدوين ، ويسترفد الامراء والسلاطين . وقصدنى لاريش جناح أمله ،

وأكون ذريعة الى نجح عمله ، ورفع لى (133 : ب) كتابا فى السياسة لا يخلو من نبل ، وسلوك طرق للانفاق وسبـــل .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

55 — الشريف أبى عبد الله العمرانى

كريم الانتماء مستظل بأغصان الشجرة الشماء ، من رجل سليم الضمير ، ذى باطن أصفى من الماء النميــر .

له فى الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ، ومضاء نصوله . وقــد أثبت من شعره ما يتضح — فى البلاغة — سبيله . ويشهد — بعتقه — صهيلـــــــــه .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

56 — أبى عبد الله بن جابر الكفيف

محسوب فى طلبتها الجلة ، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الاهلة . رحل الى المشرق وقد أصيب ببصره ، واستهان — فى جنب الاستفادة — بمشقة سفره . وشعره كثيــر .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

57 — الاديب أبى اسحاق بن الحاج

من أدباء المؤدبين ، ونبلاء المتسرعين الى النظم المنتدين . لـــو أدركه الجاحظ فى أوانه لكان طرفة من طرف ديوانه ، غريب فى أحكامه ،

معتن بمده وقصره ورويه (134 : أ) واشمامه . جهير النغمة عند رد سلامه ، محسن الظن بما يصدر عنه من كلامه وشعره من النمط الذى يؤنس فى الاسحار ، ويجرى من الفكاهة على مضمار .

ومن ذلــك فى وصــف :

58 ـ « الاديب ابن حرب اللــه »

راقم راشى ، رقيق الجوانب والحواشى . تزهى بخطه المهارق والطروس ، وتتجلى فى حلى ابداعه كما تجلت العروس . الى خلــق كثير التجمل ، ونفس عظيمة التحمل . وود سهل الجانب عذب المشارب .

لما قضيت الوقيعة العظمى بظاهر طريف ، ـ أقال الله عثارها ، وعجل آثارها ـ فرق به موج ذلك البحر ، وأفلت افلات الهدى المقرب للنحر . ورمى به الى رندة الفرار وقد عرى من أثوابه كما عرى العرار . فتعرف للحين بأديبها المفلق ، وبارقها المتألق ، أبى الحجاج المتشافرى * فراقه بشر لقائه ، ونهل ـ على الظماء ـ فى سقائه . وكانت بينهمـا مخاطبات أنشدنيها بعد ايابه ، وأخبرنى أنه نسى بها (134 : ب) ماكان من ذهاب زاده ، وسلب ثيابــه .

ومن ذلك فى وصف :

59 ـ أحــد الفضــلاء

فلان ـ وان كان أشد الناس عناية بعمامة تلوى ، وطيلسان يسوى وتاج واكليل ، وزى جميل ، وكم ينال الارض بزلومة فيل ـ فجاهد فى

* لقــد سبق أن ترجم لــه المؤلــف .

عدم الخنا صدره ، وجانبه ــ مع العز ــ شكره ، ونادرته على ذلك وعصفه فجة . لو دخل كورة النحل ، أو سكن قرية النمل ، مستأثرا من أميرها بتقريب ، أو حاصلا من رئيسها على حظ غريب ، لتلون من أخيه ، وشمخ بأنفه على فصيلته التى تؤويه ، مسكرا من شراب لمع السراب ، واقتتاب بروز الحظ المنزور . فاذا أدال الصحو من الشملة ، أو عدم قبول النملة ، أو طوى الديوان ، تمنعبأسه الاخوان . فماأراه باستكتاب القائل من أمر ريح الجنوب بالهبوب . ومن أذن للغمام الهدام، ومن الذى ينظر بعينيه الزرق نوار الكتان ! ! ؟

رفقا بنفسك ــ سيدى ــ رفقا
فالظن أن تبرأ أو أن تشقى

أما مزاجها فهو معتدل
لكن أظن خيالك استسقى

ومع ذلك فمحاضرته لا تحصر أجناس أبيه ، وزهر لا يمل منتشقه ومجتليه ، الى طلعة لا تقتحم ولا تزدرى ، وأبهة ما كان حديثها يفترى .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ! ؟
كفى المرء فخرا أن تعد معايبه

البابُ الثالث

كتبُ الزواجر والعظات

الرسالة الأولى

ومن ذلـــك فى مخاطبة ابن مرزوق :

سيدى ، الذى يده البيضاء تذهب بشهرتها المكافآت ، ولم تختلف فى مدحها الافعال ولا تغيرت فى حمدها الصفات ، ولا تزال تعترف بهـــا العظام الرفات . أطلقك الله من اسر كل الكون ، كما أطلقك من أسر بعضه، وزهدك فى سمائه وفى أرضه ، وحقر الحظ فى عين بصيرتك بما يحملك على رفضـــــه .

---

1) هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن ابى بكر بن مرزوق ، الملقب بشمس الدين والمعروف بالخطيب . ولد بتلمسان عام 710 هـ ، وتربى بها ؛ ثم صحبه ابوه الى الحج ، واثناء هذه الرحلة تسنى له الجلوس الى نخبة من علماء المشرق ، فأخذ عنهم دروس الشريعة والادب واللغة ، ثم عاد عام 733هـ ليجد السلطان ابا الحسن محاصرا لتلمسان حتى استولى عليها ، فتقرب اليه وفى نفسه طموح ، فأسند اليه امامة المسجد الذى انشاه هناك ، ولم يترك ابن مرزوق مناسبة عند السلطان الا واغتنم فرصة مدحه ، فتوطدت علاقته به ؛ حتى اضحى من خواصه المقربين ، ولعل من مظاهر ذلك انه رافقه فى « معركة طريف » بالاندلس (جمادى الاولى 741 هـ / 30 اكتوبر 1340 م) ثم اوفده على راس سفارة الى الانفوش الحادى عشر ملك قشتالة لابرام الصلح ، بعد الهزيمة التى منى بها الجيش المغربى والاندلسى اثر تلك المعركة . وبقـــى ابن مرزوق اثيرا هكذا حتى توفى أبو الحسن المرينى ، وتولى بعده ابنه أبـــو عنان ، ولكن ابن مرزوق لم يصادف عنده سابق مكانته عند والده ، فانقطـــع للعبادة بعض الوقت ، الا أن طموحه دفعه الى الاتصال ببنى عبد الواد بغية التزلف اليهم ، بيد ان هؤلاء لم ينسوا مواقفه السابقة ضدهم عند السلطان ابى الحسن ، وهناك اتصل بلسان الدين ابن الخطيب وزير دولة بنى نصر يومئذ ، فأعانه على امره ، واستصدر له ظهير تعيينه خطيبا للمسجد الاعظم بغرناطة. هذا ، وقد استدعاه السلطان ابو عنان المرينى عام 745 هـ بعد استرجاع هذا لتلمسان ، وصار فى طليعة بلاطه طيلة اربع سنوات ، حتى أوفده سفيرا الى السلطان الحفصى ابن يحيى ليخطب له منه ابنته ، ولكن التوفيق لم يحالف ابن مرزوق فى هذه المهمة ، فكان نصيبه السجن بعد عودته ، اذ ترامى الى سمع أبى عنان أن هذا الفشل يرجع الى عدم استغلال سفيره لنفوذه المعروف لـــدى الحفصيين ، وظل بالسجن قرابة سنتين ، ثم أفرج عنه ليعاود سابق مغامراته السياسية عند السلطان ابن سالم المرينى ، وتمكن بدهائه من أن يصبح من

اتصل بى الخبر السار من تركك لشأنك ، وأجناء الله اياك احسانك وانجياب ظلام الشدة (135 : ب) الحالك عن أفق حالك . فكفوت ارتياحا لانتشاق رضا الله الطيب الارج ، واستعبرت لتضاؤل الشدة بين يــدى الفرج ، لا بسوى ذلك من رضا مخلوق يؤمر فيأتمر ، ويدعوه القضاء فيأتمر ، انما هو فىء وظل ليس له من الامر شىء .

ونسأله ــ جل وتعالى ــ أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها ، وأول معارج نفسك التى تقربها من الحق وتدنيها . وكأننى ــ والله ــ أحس بثقل هذه الدعوة على سمعك ومضادتها ، ولا حول ولا قوة الا بالله لطيفك . وأنا أناغرك الى العقل الذى هو قسطاس الله فى عالم الانسان ، والآلــة لبث العدل والاحسان ، والملك الذى يبين عنه ترجمان اللسان . فأقول :

ليت شعرى ما الذى غبط سيدى بالدنيا وان بلغ من زبرجها (2) الرتبة الاولى . وأغرض المثال بحال اقبالها ، ووصل حبالها ، وخشوع جبالها ، وضراعة سبالها ! ! ألتوقع المكروه صباح مساء ، وارتقاب الحوالة التى تزيل من النعم الباساء ، لزوم (136 : أ) المنافسة التــى تعادى

كبار مستشاريه ورفاقه ، واستمر هكذا فترة لم تطل ، فقد استولى الوزيــر أبو عبد الله على مقاليد الحكم ، وخلع السلطان ابا سالم ، وبالتالى قبض على ابن مرزوق ، والقى به فى السجن .

وتبعا لما تضمنته هذه النبذة من حياة هذا الرجل : ومدى الصعاب والعقبــات التى صادفت حياته ــ وهو المعروف بثقافته وعلمه ، الى جانب عدم قناعته بما يسره الله اليه ــ يعقد كثير من المؤرخين والنقاد مقارنة بينه وبين صديقه ومعاصره لسان الدين ابن الخطيب الذى يكاد يتفق معه فى تلك الظروف ، وهذه الاتجاهات النفسية ، وربما فسرنا الصلة التى كانت قائمة بين الرجلين على هذا الاساس ، ولعل المتصفح للرسالة التى نقدمها الآن يرى من فحواهـــا ملامح الاحوال التى كان يجتازها ابن مرزوق ، والتى راى فيها ابن الخطيب صورة من سابق تجاربه ، وخلاصة مواقفه السياسية فى كنف هذا او ذاك ، نأخذ بمحض النصح لصديقه من واقع تجاربه فى هذه الميادين .

2) الزبرج . بكسر الزاى وسكون الباء . معناه الزينة من وشـــم أو نحــــوه ، والجمع منه زبارج وفعله زبرج بزنة فعلل ، بمعنى حسن الشىء وزينه .

الاشراف والرؤساء ؟ الترتيب العدل حتى على التقصير فى الكتب ، وظعينة جار الجنب ، وولوع الصديق باحصاء الذنــب ؟

النسبة وقائع الدولة اليك ، وأنت فى عــرى ؟

ألاستهدافك للمضار التى تنتجها غيرة الفروج ، والاحقاد التــى تضطبنها (3) ركبة السروج ، وسرحة المروج ، ونجوم السماء ذات البـــــروج ؟

التقيدك لتقصير ، فما ضاقت عنه طاقتك ، وصحت اليه فاقتك ، من حاجة لا يقتضى قضاءها الوجود ، ولا يكيفها الركوع للملك والسجود ؟

ألقطع الزمان بين سلطان بعبد ، وأفكار للغيوب تكبد ، وعجابة شــر تلبد ، ولقبوحة تخلد وتؤبد ؟

الوزير يصانع ويدارى ، وذى حجة صحيحة يجادل فى مرضـــاة السلطان ويمارى ، وعورة لا توارى ؟

ألمباكرة كل عاجب حاسد ، وعدو مستاسد ، وسوق ـــ للانصاف والشفقة ـــ كاسد ، وحال فاســـد ؟

النعقود تتزاحم بسدتك ، مكلفة للنفير (136 : ب) ما فى طوقك ؟

فان لم يقع الاسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟

الجثاء ببابك لا يقطعون زمن رجوعك وايابك ، الا بقبيح اغتيابك ، فالتصرفات تمقت ، والقواطع النجومية توقت . والافعى تبث ، والسعايات تحث ، والمساجد يشتكى فيها البث . يعتقدون أن السلطان فى يدك بمنزلة الحمار المدبور ، واليتيم المحجور ، والامير المأمور ، ليس له سهوة ولا

3) تضطبنها : تحملها ما بين الكشح والابط ، وفعله ضبن بفتحتين ، بمعنى حمله فوق الضبن ، والضبن بتشديد الضاد مع الكسر وسكون الباء ما بين الكشح والابط كما ذكرنا ، وتبعا لهذا يقال فلان فى ضبن فلان ، اى فى كنفه .

غضب ، ولا أمل فى الملك ولا أرب ، ولا موجدة لاحد كامنة ، وللشر ضامنة !! وليس فى نفسه عن أى نفرة ، ولا بازاء ما لا يقبله نزوة أو طفرة !!

انما هو جارحة لصيدك ، وعاث فى قيدك ، ودالة لتصرف كيدك ، وأنك علة حيفه (1) ومسلط سيفه .

ألشرار يسملون عيون الناس (2) باسمك ، ثم يمزقون بالغيبة فزق جسمك . قد تنخلهم الوجود اخبث ما فيه ، واختارهم السفيه فالسفيه ؟ اذا الخير يستره الله عن الدول أو يخفيه ، ويقنعه بالقليل فيكفيه ، فهم يمتاحون بك (137 : أ) ويولونك الملامة ، ويفتحون عليك القول ، ويسدون طرق السلامة . وليس لك — فى اثناء هذه — الا ما لا يعوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه ، وذهاب صداعه — من غداء يشبع ، وثوب يقنع ، وفراش ينيم وخديم يقعد ويقيم !!

وما الفائدة فى فرش تحتها جمر الغضا ؟ ومال من ورائه سوء القضا ؟ وجاه يحلق عليه سيف منتضى ؟ واذا بلغت النفس الى الالتذاذ بما تملك ، واللجاج حول المسفك ، الذى تعلم أنها فيه تهلك — فكيف تنسب الى نبل ، أو تسير من السعادة فى سبل !! وان وجدت فى القعود بمجلس التحية ، بعض الاريحية فليت شعرى أى شىء زادها ، أو معنى أفادها ، الا مباكرة وجه الحاسد ، وذى القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستأسد !! وشعرت ببعض الايناس ، فى الوكوب بين الناس ، هل التذت الا بحلم كاذب أو جذبها غير الغرور مجاذب ؟

انما راكبك من يحدق الى الحلبة والبزة ، (137 : ب) ويستظل مدة العزة ، ويرتاب اذا حدثت بخبرك ، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع

---

1) حيفه : ظلمه .

2) يسملون عيون الناس . يفقئاونها ، والسمال هو من يقوم بهذا العمل . والتعبير اذن على سبيل المجاز ، والقصد ان هؤلاء الاشرار يرتكبون افعالهم ضد الاخرين باسم المخاطب هنا .

نظرك ، ويمنعك من مسايرة أنيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويضمر الشر لك ولرئيسك . وأى راحة لمن لا يباشر قصده ، ويسير ــ متــى شاء ــ وحده ! ولو صح ــ فى هذه الحال الله حظ وهبه زهيداً ، أو عين الرشد عملا حميدا ، لساغ الصاب ؛ وخفت الاوصاب ، وسهل المصاب . لكن الوقت أشغل ، والفكر أوغل ، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ؛ واستنفدت منه الكمية . أما ليله ففكرة ونوم ، وعتب يجر الضرائر ، وأما يومه فتدبير ، وتقبيل ودبير ، وأمور يعيا بها تبير ، ولفظ فيه حكيم كبير وبلاء مبير (1) ، وأنا ــ بمثل ذلك خبير .

والله يا سيدى ــ ومن فلق الحب ، وأخرج الاب (2) ، وذرا مــا مشى وما دب ، وهدأ وأكب ، وسمى نفسه الرب ــ لو تعلق المال الذى يجره هذا الكدح ، يرى سقطه هذا القدح ، بأذيال الكواكب ، وزاحمت البدر بدره (138 : أ) بالمناكب . لا رامه عقب ، ولا خلص فيه محتقب ، ولا فاز به سافر ولا منتقب ، والشاهد الدول ، المشائيم الاول . فأين الرباع المنتقاة ؟ وأين الحوائط المغترسات ؟ وأين الذخائر المختلسات وأين الودائع المؤملة ، والامانات المحملة ؟

(تكفل) الله بتثبيرها ، وادناء نار التبار من دنانيرها ، فقلما تلقى أعقابهم الاعرى الظهور ، مترفقين بجرايات الشهور ، متعللين بالهباء المنثور ، يطردون من الابواب التى حجب عندها آباؤهم ، وعرف منها اباؤهم ، وشم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم ، لم تسامحهم الايــام الا فى ارث محرره ، والا حلال مقرره ، وربما محقه الحرام ، وتعدى منه المرام . هذه ــ أعزك الله ــحال قبولها المرغوب فيه ، وما لها مــع الترفيه ، وعلى فرض أن يستوفى العمر فى العز مستوفيه . وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم ، وحوت يغى يتبلغ ويلتقم .

---

1) مبير . مهلك ، ويقولون عن الدنيا « دار البوار » اى الهلاك .

2) الاب . معناه هنا ما كان رطبا أو يابسا من العشب .

وطبق يحجب الهوا ، وتطيل ترب الثوى ، وثعبان قيد بعض الساق ، (138 : ب) وشؤبوب (1) عذاب ، يمرق الابشار الرفاق ، وغلل يديها الواقب الغاسق ، ويجرعها العدو الفاسق . فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الافول والشروق .

فهل فى شىء من هذا مغتبط لنفس حرة ، أو ما يساوى جرعة حال مـــرة ؟ ؟

واحسرتا للاحلام ضلت ، وللاقلام زلت ! ! ويالها من مصيبة جلت!

ولسيدى أن يقول : حكمت على باستثقال الموعظة واستجفائها ، ومراودة الدنيا بين خلانها واكفائها وتناسى عدم وفائها .

فاقول : الطبيب بالعلل أدرى ، والشفيق — بسوء الظن — مغرى . وكيف وأنا أقف على المساءة بخط يد سيدى من مطارح الاعتقال ، ومثاقف النوب الثقال — وخلوات الاستعداد ، للقاء الخطوب الشداد (وحافات) الاسنة الحداد وحيث يجمل بمثله الا يصرف — فى غير الخضوع لله — بنانا ، ولا يثنى — لمخلوق — عنانا . وأتعرف أنها قد ملت الجو والدو ، وقصدت الجماد والبو ؟ تقتحم أكف أولى الشمات ، (139 : أ) وحفظة المذمات ، وعوان النوب الملمات ، زيادة فى الشقاء ، وقصدا حريا من الاختيار والانتقاء ، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء (2) ، ومن النفاق على أشهر من البلغاء ؟ فهذا يوصف بالامامة ، وهذا ينسب فى الجود الى كعب ابن أمامة ، وهذا يجعل من أهل الكرامة ، وهذا يكلف

---

1) الشؤبوب . فعله « شأب » مثلث الفتحات ، والجمع منه « شآبيب » ، وهى لغة بعدة معان منها . الدفعة من المطر ، وشدة حر الشمس ، وحد كل شىء وشدة اندفاع كل شىء وأول ما يظهر من الحسن ، ولعل قصد المؤلف هنا هو. الحد المندفع بدليل السياق والوصف له .

2) العنقاء . تطلق على طائر مجهول تخيله العرب ، يقول شاعرهم :

نبئـــت ان المستحيل ثلاثـــة ... الغـــول والعنقـــاء والخل الوفى

الدعاء وليس من أهله ، وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله ، الى ما احفظنى ــ والله ــ من البحث عن السموم ، وكتب النجوم ، والمذموم من المعلوم ؟ هلا كان من ينظر فى ذلك قد قوطع بتاتا ، واعتقد أن الله قد جعل من الخير والشر ميقاتا ، وأنا لا أملك موتا ولا نشورا ولا حياة ، وان اللوح قد حصر الاشياء محوا واثباتا . فكيف نرجو لما منع منالا ، أو نستطيع مما قدر ــ افلاتــا ؟ ؟ ! !

أفيدونا ما يرجح العقيدة المتقررة ننتحول اليه ، وبينوا لنا الحــق نعول عليه ، الله الله يــا سيدى فى النفس المرشحة ، والذات المحــلاة بالفضائل الموشحة ، والسلف الشهير (139 : ب) الخير ، والعمــر المشرف على المرحلة بعد حث السير ؟ ودع الدنيا لاهلها ، فما أوكس خطوظهم ! وأخس لحوظهم ! واقل متاعهم ! وأعجل اسراعهم ! وأكثــر عناءهم ! واقصر اناءهــم !

مــا ثم الا مــا رأيت ، وربما تعيى السلامة
والناس امــا حائــر أو حائــد يشكو ظلامــة
واذا أردت العــز لا تزرى بنى الدنيــا قلامــة
والله ما احتقب الحريص سوى الذنوب أو الملامة
هــل ثم شك فى المعاد الحــق أو يوم القيامــة
قولوا لنا ما عندكم ــ بالله ــ أهل الخطابة والملامة

وان رميت بأحجارى ، وأوجزت المر من أشجارى ، فوالله ما تلبست اليوم بشىء قديم ولا حديث ، ولا استأثرت بطيب فضلا عــن خبيث . وما أنا الا عابر سبيل (1) وهاجر مرعى وبيل ، ومرتقب وعــد

1) التعبير جاء اقتباسا من الحديث النبوى الشريف : « كن فى الدنيا كانك غريب ، أو عابر سبيل ، وعد نفسك من اهل القبور » تزهيدا فى الدنيا وتحذيرا منها ..

أقدر فيه الانجاز . وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز . قد فررت من الدنيا كما نفر من الاسد ، وحاولت قطع المداخلة حتى (140 : أ) بين روحي والجسد . فلم أبق عادة الا قطعتها ، ولا جنة للصبر الا ادرعتها ، أما اللباس فالصوف ، وأما الزهد فى ما بايدى الخلق فمعروف ، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف . والله لو علمت أن حالى هذه تتصل ، وعراها لا تنفصل ، وترتيبى هذا يدوم ، ولا يجرنى الوعد المحتوم ، والوقت المعلوم — لمن أشفى ، وحسبى الله وكفـــى .

ومع هذا يا سيدى ، فالموعظة تتلقى من لسان الوجود ، والحكمة ضالة المؤمن ببذل المجهود ، ويأخذها — من غير اعتبار بمحلها — المذموم ولا المحمود . ولقد اعملت نظرى فيما يكافىء عنى بعض يدك ، أو ينتهى فى الفضل الى امدك ، فلم أر فى الدنيا لك كفاء ، لو كنت صاحب دنيا ، ووجدت بذل النفس قليلا من غير شرط ولا ثنيا ، لما الهمنى الله — جـــل جلاله — الى مخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة فى قالب الخفا ، ولا يعرف قارورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنسين بها المنهمكين ، وينظر أغوارها الفالح بعق اليقين ، (140 : ب) ويعلم أنها المومسة التى حسنها زور ، وعاشقها مغرور ، وسرورها شرور . تبين لى أنى قد كافأت صنيعتك المتقدمة ، وخرجت عن عهدتك الملتزمة .

وأمحضت لك النصح الذى يعز — بعز الله — ذاتك، وبطيب حياتك، ويحيى مواتك ، ويريح جوارحك من الوصب، وقلبك من النصب، ويحقر الدنيا وأهلها فى عينيك اذا اعتبرت وبلاشى عظائمها لديك اذا اختبرت ، كل من يقع عليه عينك حقير قليل وفقير ذليل لا يفضلك بشىء الا باقتفاء رشد ، أو ترك غـــى ، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل ، وعروته يفصلهـــا الفاصل ، وما له الحاضر الحاصل ، يعيث فيه الحسام الناصل . والله ما تعين للسلف ، ولا يصير المجموع الا الى التلف ، ولا صح من الهيـــاط

والمياط (1) . والصياح والعياط ، وجمع القيراط الى القيراط ، والاستظهار بالموزعة والاشراط والخبط والخباط ، والاستنكار والاغتباط ، والغلـو (141 : أ) والاشتطاط ، وبناء الصرح وعمل الساباط ، ورفع العماد وادارة الفسطاط ، الا ألم لم يذهب القوة ، وينسى الآمال المرجوة ، ثم نفس يصعد ومكبرات تتردد وحسرات ـ لفراق الدنيا ـ تتجدد ولسان يثقل ، وعين تبصر الفراق الحق وتمقل . « قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون(2)» ثم القبر وما بعده ، والله منجز وعيده ووعده . فالاضراب والتـراب التـــراب .

وان اعتذر سيدى بقلة الجلد ، لكثرة الولد ، فهو ابن مرزوق لا ابن رازق ، وبيده من التسبب ما يتكفل بامساك أرماق . أين النسخ الذى يتبلغ الانسان بأجرته ، فى كن حجرته ، لا ، بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمعرة السؤال ، والله أقوم طريقا ، وأكرم فريقا ، من يد تمتد الى حرام ، لا تقوم بمرام ، ولا تؤمن من ضرام أخربت غيه الحلل وقلبت الاديان والملل . وضربت الابشار ، ونحرت العشار ، ولم يصل منه على يد واسطة السوء المعشار ، ثم طلب عند الشدة ففضح ، وبان (441 : ب) شؤمه ووضح . الله طهر منا أيدينا وقلوبنا ، وبلغنا من الانصراف اليك مطلوبنا ، وعرفنا بمن لا يعرف غيرك ، ولا يسترفد الا خيرك ، يا الله .

وحقيق على الفضلاء ـ ان جنح سيدى منها الى اشارة ، وأعمل فى اجتلائها اضباره (3) ، أو لبس منها شارة ، أو تشوف لخدمة امارة ـ الا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن اياس ، ولا يغتروا بسمة ولا خلق ولا لباس ، فما عدا بدا ، تقضى العمر فى سجن وقيد ، وعمرو وزيد ،

---

1) الهياط والمياط ، تعبير يطلق على حالة الاضطراب والمجىء والذهاب ، ونعل الاول هاط بمعنى ضج واجلب ، والمصدر الهيط والهياط .

2) سورة « ص » آية : 67 ـ 68 .

3) الاضبارة : الحزمة من السهام أو الصحف ، والجمع اضابير ونعله .ل ضبـر مثلث الفتحات .

وشر وكيد ، وطراد صيد ، وسعد وسعيد وعبد وعبيد . فمتى تظهــر الابكار ، ويقر القرار ، وتلازم الاذكار ، وتشام الانوار ، وتتجلــى الاسرار ، ثم يقع الشهود التى تذهب معه الاخبار ، ثم يحق الوصول الذى اليه من كل سواء القرار ، وعليه المدار . وحق الحق الذى ما سواه فباطل ، والفيصل الرحمانى الذى بابه الابدى هاطل ، ما شابت بخاطبتى هذه شايبة تريـــب .

ولقد محضت ما لم يمحضه للحبيب الحبيب ، فتجمل الذى جملت (142 : أ) عليه الغيرة ، ولا تظن بى غيرة . وان لم يكن قدرى مكاشفــة سيادتك بهذا البث ، فى الاسلوب الغث ، فالحق أقدم ، وبناؤه لا يهدم . وشأنى معروف فى مواجهة الجبابرة ، على حين يدى – الى رفدهم – ممدودة ، ونفسى من النفوس المتهافتة عليهم معدودة !! وشبابى فاحم ، وعلى الشهوات مزاحم . فكيف اليوم مع الشيب ، ونصح الجيب ، واستكشاف العيب ، وانما أنا اليوم على كل من عرفنى – كل ثقيل ، وسيف العدل فى كفى صقيل . أعذل أرباب الهوى ، وليست النفوس فى القبول سواء ، ولا لكل مرض دواء ، وقد شفيت صدرى ، وان جهلــت قدرى فاحملنى ، حملك الله على الجادة الواضحة ، وسحب عليك ستر الابوة الصالحــة ، والســلام .

الرسالة الثانية

ومن ذلك ما صدر عنى فى هذا الغرض بما نصه :

الحمد لله الولى الحميد ، المبدى المعيد ، البعيد فى قربه من البعيد فى بعده ، فهو أقرب من حبل الوريد (142 : ب) . محيى قلوب العارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومغنى نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار الى الغرض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سجون حجون التقييد الى فسح التجديد ، نحمده وله الحمد المنتظمة درره فى سلوك الدوام وسموط التأييد ، حمد من نزه أحكام وحدانيته وأعلام فردانيته عن مرابط التقليد فى مخابط الطبع البليد . ونشكره شكر من افتتح بشكره أبواب المزيد . ونشهد أنه الله الذى لا الاه الا هو ، شهادة نتخطى بها معالم الخلق الى حضرة الحق على كنز التفريد .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفذلكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنثور الادلال ، واقطاع الكمال ، ما بين مقام المراد ومقام المريد ، الذى جعله السبب الاوصل فى نجاة الناجى وسعادة السعيد .

وخاطب الخلائق على لسانه الصادق بحجتى الوعد (143 : أ) والوعيد ، فكان مما أوحى به اليه ، وأنزل الملك به عليه من الذكر الحميد ، ليأخذ بالحجر والاطواق من العذاب الشديد ، « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (1).

صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الاكيد ، وتسرى الى تربته الزكية من ظهور المواجد الحبية على المريد . فعدت لتذكيرى ولو كنت مبصرا لذكرت نفسى ، فهى أحوج للذكر اذا لم يكن منى لنفسى

1) سورة ق ، آية 16 — 20 .

ذاكرا . فياليت شعرى كيف يفعل فى أى وعظ بعد موعظة الله يـا أحبابنا يسمع ، وفيماذا وقد تبين الرشد من الغى يطمع ، يامن يعطى ويمنع ، ان لم تتم (143 : ب) الصنيعة فماذا نصنع اجمعنا بقلوبنا يا مـن يفرق الجمع ، ولين حديدها بنار خشيتك ، فقد استعاذ نبيك من قلب لا يخشع ومن عين لا تدمع .

اعلموا ــ رحمكم الله ــ أن الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها من الاقوال والاحوال ، ومن الجماد والحيوان وألسنة الملوان ، فان الحق نور لا يضره أن يصدر من الخامل ، ولا يقصر بمحموله احتقار الحامل ، وأنتم تدرون أنكم فى أطوار سفر ، لا تستقر لها دون الغاية رحلـة ، ولا تتأتى معها اقامة ولا مهلة ، من الاصلاب الى الارحام الى الوجود الى القبور الى النشور ، الى احدى دارى البقاء ، أفى الله شك (1) ؟ ! ! ، فلو أبصرتم منافرا فى البريد يبنى ويعرش ، ويمهد ويفرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهلة ، وتعجبون من ركالة عقله . ووالله ما أولادكـم وشواغلكم عن الله التى فيها اجتهادكم الا بناء سفر فى قفر ، واعراس فى ليلة نفر . كأنكم بها مطرحة تغثو فيها المواشى ، وتنبو العيون عن حفيرها (144 : أ) المتلاشى « انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم(2)» ما بعد المقيل الا الرحيل، ولا بعد الرحيل الا المنزل الكريم أو المنزل الوبيل ، وأنكم تستقبلون أهوالا سكرات الموت بواكر حسابها ، وعتب أبوابها ، فلو كشف الغطاء منا عن ذرة لذهلت العقوم ، وطاشت الاحلام ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام ، « يأيها الناس ان وعد اللـه حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (3) » أفلا أعددتم لهذه الورطة حيلة ، أو أظهرتم للاهتمام بها مخيلة ، تعويلا على عفوه ــ مع المقاطعة ــ وهو القائل « ان عذابى لشديد (4) » أأمنا من مكره

---

2) سورة التغابن ، آية 15 .
3) سورة فاطر ، آية : 5 .
4) سورة ابراهيم ، آية : 7 .

ـ مع المنابذة ـ « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون (5) » ؟ ! ! أطمعا فى رحمته ـ مع المخالفة ـ وهو يقول : « سأكتبها للذين يتقون (6) » ؟ ! ! أو مشاقة ومعاندة « ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب (7) » ؟ ! ! أشكا فيه ! فتعالوا نعد الحساب ، ونقرب العقد ، وننتصف بدعوة الاسلام أو غيرها من اليوم (144 : ب) تفقدوا عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامى يدهن الاصبع الى جهة ، والعارف يضمد لها مبدأ العصب .

هكذا ، هكذا يكون التعامى ! ! هكذا ، هكذا يكون الغرور ! « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون (8) » وما عدا عما بدا ورسولكم الحريص عليكم ، الرءوف الرحيم يقول لكم : « الكيس من دان نفسه هواها ، وتمنى على الله الامانى (9) » ، فعلام هذا المعول ، وبماذا يتأول . اتقوا الله فى نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا فرص الحياة وأربحوها « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين (10) » وتنادى أخرى : يا ليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل (11) » ، وتقول أخرى : « رب ارجعون (12) » ، وتستغيث أخرى : « هل الى مرد من سبيل ! ! ! » فرحم الله من نظر لنفسه قبل غروب شمسه ، وقدم لغده من أمسه ، وعلم أن الحياة تجر

(5) سورة الاعراف ، آية : 99 .
(6) سورة الاعراف ، آية : 156 .
(7) سورة الانفال ، آية : 13 .
(8) سورة يس ، آية : 30 .
(9) رواه الشيخان .
(10) سورة الزمر ، آية : 56 .
(11) اقتباسا من قوله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » الاعراف : 53 .
(12) سورة المؤمنون : آية 99 من قوله تعالى : حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت .. الآية » .

الى الموت ، والغفلة (145 : أ) تقود الى الفوت ، والصحة مركب الالم ، والشبيبة سفينة تقطع الى ساحل الهرم . وان شاء قال بعد الخطبة : اخوانى ، ما هذا التوانى ، والكلف بالموجود الفانى ، عن الدائم الثانى ؛ والدهر يقطع بالامانى ، وهادم اللذات قد شرع فى نقض المبانى . الا معتبر فى معالم هذه المعانى ، ألا أذن تصغى الى سميعة ، أحدثها بالصدق ما صنع الموت ! ! ! . مددت لكم صوتى بأواه حسرة على ما بدا منكم ؛ فلم يسمع صوت هو الغريب الآتى على كل دمنة . فتوبوا سراعا قبل أن يقع الفوت . يا كلفا بما لا يدوم ، يا مفتونا بغرور الموجود المعدوم ، يا صريع جدار الاجل المهدوم ، يا مشتغلا ببنيات الطريق ظهر المناخ وقرب القدوم ، يا غريقا فى بحار الالم ، ما عساك تقوم ، يا معلل الطعام والشراب ولمع السراب ، لا بد أن يهجر المشروب ويترك المطعوم . دخل سارق الاجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر ، وطوى البساط وأنت تكرب ، واقتلع جواهر (145 : ب) الجوارح ، وقد وقع بك البيت ولم يبق الا أن يجعل الوسادة على أنفك ، وتقول :

لــو خفــف الوجــد ❋ ❋ دعــوت طالب ثــارى

« كلا انها كلمة هو قائلها (4) » ، كيف التراخى والقوت مـــع الانفاس يرتقب وينتظر ! ! كيف الامان وهاجم الموت لا يبقى ولا يذر ! كيف الركون الى الطمع الفاضح وقد صح الخبر ! ! من فكر فى كـــرب الخمار تنغصت عنده لذة النبيذ ، من أحس بلغط الحرس فوق جداره لم يصغ بسمعه الى نغمة العود ، من تيقن بذل العزلة هـــان عنـــده عـــز الولايـــة ! !

ما قام خيرك يا زمان بشره   أولى لنا ما قل منك وما كفى

---

13) الشورى : 44 .

أوحى الله الى موسى ـ صلوات الله عليه ـ أن ضع يدك على متن ثور فبقدر ما حازته من شعره تعيش سنين ، فقال : يا رب ، وبعد ذلك ؟ قال : وتموت فقال : يا رب فالآن ..

رأى الامـــر يفضى الى آخر ، فصير آخره أولا

اذا شعرت نفسك بالميل الى شىء فاعرض عليها غصة (146 : أ) . « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة » (15) ، فالمفروح بـــه هو المحزون عليه ! أين الأحباب مروا ، فياليت شعرى أين استقـــروا ، واستكانوا ، ولله اضطروا ، واستغاثوا بأوليائهم ففروا ، ليتهم ـ اذ لم ينفعوا ـ ما ضروا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والغراس ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل متشابهة ، والمساكن تندب فى أطلالهـــا الذئاب العاوية !!

صحت بالربـــع فلـــم يستجيبوا ليت شعرى أين يمضى الغريب
وبجنب الـــدار قبـــر جديـــــد منه يستقى المكـــان الجديـــب
غاص فيه قلبى عنــــد التماحـــى قلت : هذا القبر فيه الحبيـــــب
لا تسل عن رجعتى كيف كانـــت ان يوم البـــين يـــوم عصيـــب
باقتراب الموت عللت نفســــــى بعد الفنـــا ، وكـــل آت قريـــب

أين المعمر الخالد ، آين الولد ، أين الوالد ؟ !! أين الطارف ، أيـــن التالـــد ؟ !! أين المجادل أين المجادل ؟ ؟ !

(14) سورة المؤمنون ، آية : 100 .

(15) سورة الانفال ، آية : 42 .

« هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا » (16) وجـــوه علاهن الثرى ، وصحايف (146 : ب) تنض ، وأعمال على الله تعرض. بحث الزهاد والعباد ، والعارفون والاوتاد ، والانبياء الذين هدى بهم العباد ــ عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده ، فلم يجدوا الا البعد عن الله ، وسبب حب الدنيا « لن تجتمع أمتى على ضلالة » (17) .

هجرت حياتى من أجـل ليلـى ... فمالى ــ بعد ليلى ــ من حبيب
وماذا أرتجى من حـب ليلـى ... تسحرنى بالقطيعة عـن قريب

وقالوا : ما أورد النفس الموارد ، وفتح عليها باب الحتف الا الامل، كلما قومتها مثاقف الحدود فسح لها أركان الرخص ، كلما عقدت صوم العزيمة أهداها طرف الغرور فى أطباق : متى ، واذن ، ولكـن ، ورب !! فأفرط القلب فى تقليبها حتى أفطر .

ما أوبق الانفـس الا الامـل ... وهو غـرور ما عليـه عمـل
يفرض منه الشخص وهما ماله ... حال ولا ماض ولا مستقبـل
ما فوق وجه الارض نفس حية ... الا قد انقض عليهـا الاجـل
لو أنهم من غيرها قد كونـوا ... لامتلأ السهل بهـم والجبـل
ما ثم الا لقم قد هيئـت للمـ ... ـوت وهو الآكـل المستعجـل
(147:أ) والوعد حق والورى غفلة ... قد خدعوا بعاجـل وضلـوا
أين ذوو الراحات راحت حسرة ... اذ جنبوا الى الثرى وانتقلـوا
لم تدفع الاحباب عنهم غير أن ... بكوا على فراقهـم وأعولـوا

---

16) مريم : 98 .
17) رواه الشيخـان .

الله فى نفسك أولى من له دخـ ـرت نصحـا وعتابـا يقبـل
لا تتركنها فى عمـى وحيـرة عن هول ما بين يديهـا تعقـل
حقر لها الغانى وحاول زهدهـا فيه وشوقهـا لمـا يستقبـل
وقد الى الله بهـا مضطـرة حتى تـرى السيـر عليها يسهل
هذا الفنـاء والبقـاء بعـده والله عن حكمتـه لا يسئـل
يا قرة العين ويا حسرتها يـوم يوفى الناس ما قـد عملـوا

يا طرداء المخالفة انكم مدركون ، فاستبقوا باب التوبة ، فان رب تلك الدار يجير ولا يجار عليه ، « فاذا أمنتم فاذكروا الله كما هداكم» (18) يا طفيلة الهمة ، دسوا أنفسكم فى زمر التائبين ، وقد أذعنوا الى دعوة الحبيب ، فان لم يكن أكل فلا أقل من طيب الوليمة . قال بعض العارفين: اذا عقد التائبون الصلح مع الله انتشرت رعايا الطاعـة فى (147 : ب) عمالة الاعمال « وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب » (19) .

معانى المجلس ــ والحمد لله ــ نسيم سحر ، اذا انتشقه مخمور الغفلة أفاق ، سقوط هذا الوعظ ينفض ــ ان شاء الله ــ زكمة البطالة . ان الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، اكسير هذا العتاب يقلب ، بحكمة جابر القلوب المنكرة عمن كان له قلب ، « انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله » (20) .

---

18) اقتباسا من قوله تعالى : واذكروه كما هداكم ، وان كنتم من قبله لمن الضالين» البقرة : 198 .

19) الزمر : 69 .

20) الانعام : 36 .

الهى دلها من حيرة يضل فيها ـ الا ان هديت ـ الدليل ، وأجلها من غمرة ، وكيف ـ الا باعانتك ـ السبيل ، نفوس صدا على مر الازمان منها الصقيل ، ونبا بجنوبها عن الحق المقيل ، امضها القول الثقيل ، وعثرات لا يقيلها الا أنت ، يا مقيل العثار ، يا مقيل . أنت حسبنا ، ونعم الوكيل .

الرسالة الثالثة

ومن ذلـــك :

اخوانـــى صمت الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار اليه شهير ، أين الملك ، وأين الظهير ، أين الخاصة وأين الجماهير ، أين القبيل وأين العشير ، أين كسرى (21) ، أين ازدشير (22) (148 : أ) صـــدق ــ والله ــ الناعى وكذب البشير ، وعز المستشار واتهم المسنشير ، وسل عن الكل فأشار الى التراب المشير .

---

(21) هناك فى التاريخ « كسرى انو شروان » ثم كسرى ابرويز » **فالاول : ملـــك** ساسانى (531 ــ 579 م) ابن قباذ . حارب فى مواقع عدة ، واحتل انطاكية، واجبر على عقد هدنة مع البيزنطيين (555 م) كما استولى على اليمن (570 م) ومن اهم اصلاحاته الداخلية تعديله لنظام الضرائب فى البلاد بما حقق مصلحة الناس والدولة ، كما قام بمسح شامل للاراضى . **اما الثانى : فهو** « كسرى ابرويز » ، وهو ملك ساسانى ايضا (590 ــ 628 م) ابن هرمز الرابـــع . ارتقى العرش بمساعدة الامبراطور موريق البيزنطى (591 » ، وقد احتـــل القدس عام 614 ، وقد اغتيل فى السجن بعد ان كان هرقل قد انتصر عليه .

(22) يطلق هذا الاسم على ثلاثة ملوك فارسيين من السلالة الساسانية ، اهمهـــم ازشير الاول مؤسس الدولة الساسانية (نحو 226 ــ 241 م) وقد أعاد بنـــاء وحدة بلاده ، ثم ازدشير الثانى (370 ــ 383 م) خلف شابور الثانى .
وتجدر الاشارة فى هذه المناسبة الى ان ازدشير سابور وزير بهاء الدولـــة البويهى قد اسس فى بغداد دارا للكتب ، كان قوام محتوياتها ما يقـــرب مـــن 10.000 كتاب عام 990 م .

خذ من حياتك للممات الآتي   وبدار ما دام الزمان موات
لا تغترر فهو السراب بقيعة   قد خدع الماضى به والآتي
يا من يؤمل واعظا ومذكرا   يوما لينقذه من الغفلات
هلا اعتبرت ، ويا لها من عبرة   بمدافن الآباء والامهات
قف بالبقيع ، وناد فى عرصاته   فلكم بها من جيرة ولدات
درجوا ولست بخالد من بعدهم
متميز عنهم بوصف حياة
والله ما استهللت حيا صارخا   الا وأنت تعد فى الاموات
لا فوت من درك الحمام لهارب   والناس مرعى معرك الآفات
كيف الحياة لدارج متكلف   سنة الكرى بمدافن الحيات
أسفا علينا معشر الاموات لا   ننفك عن شغل بهاك وهات
ويغرنا لمع السراب فنغتدى   فى غفلة عن هادم اللذات
والله ما نصح امرءا من غيه   والحق ليس بخافت المشكاة

يا من غدا وراح ، وألف المراح ، يا من شرب الراح (148 : ب) ممزوجة بالعذاب القراح ، وقعد لقيان صروف الزمان مقعد الاقتراح . كأنك – والله – باختلاف الرياح وسماع الصياح، وهجوم غارة الاجتياح، فأديل الخفوت من الارتياح ، ونسيت أصوات الغناء برنات النياح ، وعوضت غرر النوب القباح من غرر الوجوه الصباح ، وتناولت الجسوم الناعمة أيدى الطراح ، وتنوسيت العهود الوثيقة بكر المساء والصباح ، وأصبحت كماة النطاح من تحت البطاح ، وحملة المهندة الرماح ، ذليلة من بعد الجماح ، ولو كان هذا الموت لا شىء بعده لهان علينا الامر ، واحتقر الهول ، ولكنه حشر ونشر ، وجنة ونار ، ومالا يستقل به القول .

يا مشتغلا بداره ، ورم جداره عن انزاعه الى النجاة وبداره ، يا من صاح بانذاره شيب عذاره . يا من صرف عن اعتذاره باقذائه واقداره ، يا من قطعه بعد مزاره وثل أوزاره ، يا معتلقا ينتظر هجوم جـــزاره . يا مختلسا للامانة يرتقب مفتش ما تحت ازاره . يا من أمعن فى خمـــر (149 : أ) الهوى خف من اساره ، يا من حالف مولى رفه توق من انكاره. يا كلفا بعارية ترد ، يا مفتونا بأنفاس تعد ، يا معولا على الاقامة والرحال تشد ، كأننى بك وقد أوثق الشد ، وألصق بالوسادة الخد ، والرجل تقبض والاخرى تمد ، واللسان يقول : يا ليتنا نرد !!

انا للـــه لــه مـــا أشغـــل	الانســان عـــن شانـــه
يرتاح للاثواب يزهـــى بهـــا	والخيــط مغــزول لاكفانـــه
ويخزن الفلـــس لوراثــــه	مستنفــــدا مبلــغ امكانـــه
قوض عن القانى رحال أمـــرى	مد اليـــه كــف عرفانـــه
ما ثـــم الا موقـــف راهـــن	قـــد وكـــل العـــدل بميزانـــه
مفـــرط يشقـــى بتفريطــــه	ومحسن يجـــزى باحسانـــه

يا هذا ، خفى عليك فرض اعتقادك فالتبس الشحم بالورم . جهلت قيم المعادن فبعت الشبة بالذهب فسد حسن ذوقك فتفكهت بحنظلة . أين حرصك من أجلك ؟ أين قولك من عملك ؟ يدركك الحياء (149 : ب) مـــن الطفل فتتحامى حمى الفاحشة فى البيت بسببه ، ثم تواقعها بعين خالـــق العين ، ومقدار الكيف والأين !! تالله ما فعل فعلك بمعبوده من قطـــع بوجوده ، « ما يكون من نجوى ثلاثة . . » الآية (23) . تعود عليك مساعى الجوارح التى سخرها لك بالقناطر المقنطرة بالذهب والفضة ، فتبخل منها فى سبيله بفلس ، وأحد الامرين لازم : اما التكذيب ، واما الحماقـــة ،

---

23) سورة المجادلة ، آية : 7 .

وجمعك بين الحالتين عجيب !! يرزقك السنين العديدة من غير حق وجب لك ، وتسيء الظن به فى يوم توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ؛ فما بال التمادى ؟ !! تعترف بالذنب فما الحجة من الاصرار ؟ !! « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا » (24) يا مدعى النسيان ، ماذا فعلت من بعد التذكير ؟ يا معتذرا بالغفلة أين نضرة التنبيه ؟

يا من قطع بالرحيل ، أين الزاد ؟ يا ذنابة الحرص ، الى كم تلجلج فى ورطه الشهد؟ يا نائما ملأ عينه جدر الاجل يريد أن ينقض يائمل الاغترار قرب خمار الندم تدعى الحقوق بالصنائع (150 : أ) وتجهل هذا القدر !! تبذل النصح لغيرك ، وتغش نفسك هذا الغش !! اندمل جرح توبتك على عظم ، قام بناء عزيمتك على رمل نبتت خضراء دعوتك على دمنة . عقدت كفك من الحق على قبضة ماء «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا .. » الآية (25) اذا غام جو المجلس ، وابتدا رشم غمام الدموع ؛ قالت النفس الأمارة : حوالينا لاعلينا ، فذللت رياح الغفلة ، وسحاب الصيف تصفاف. كلما شد طفل العزيمة كفه على درة التوبة ما نعته طير الشهوة على ذلك بعصفور ، اذا ضيق الخوف فسحة المهل سرق الامل حدود الجار قال بعض الفضلاء :

كانوا اذا فقدوا مطلوبهم تفقدوا قلوبهم . ولو صدق للواعظ الأثر اللهم لا أكثر . طبيب يداوى الناس وهو عليل !! والمتفطن قليل ، فهل الى الخلاص سبيل ، أنظرنا بعين رحمتك التى وسعت الأشياء ، وشملت الاموات والاحياء ، يا دليل الحائرين دلنا ، يا عزيزا ارحم ذلنا (150 : ب) يا ولى من لا ولى له كن لنا ان أعرضت عنا ، فمن لنا ؟ نحن المذنبون ، وأنت غفار الذنوب،فقلب قلوبنا يا مقلب القلوب ، واستر عيوبنا يا ستار العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب . أنت حسبنا ونعم الوكيل .

---

(24) الاعراف : 58 .

(25) سورة فاطر ، آية : 8 .

الرسالة الرابعة

ومن ذلك الغرض مما خاطب به أحد الفضلاء :

الحمد لله على نعمة الاسلام ، وبنور النبوة نجلو غياهب الظلام ونسعى الى دار السلام . حفظك الله يا أبا سعيد ، وأرشد سعيك وتدارك بالمرمة وهيك ، قبل أن يسمع الموت نعيك . وقفت على براعتك الطويلة الذيل ، المطففة فى الكيل ، مشتملة على تهويل ، ومرعى وبيل ، وعتاب طويل ، وتبجح بألفاظ وأقاويل ، لم ينجع فيها طب ابن مقدم ولا علاج ابن عبد الجليل . ما ثم الا عوائد يشتكى من لزومها ، ووخز كلومها . وبعد تتطور من طول مداه ، ووهم يقلق من اشتباك لحمته بسداه ، مع الاعتراف منك ، وبالعثور من الشيخ الواصل على الكنز (151 : أ) الحاصل ، ومصاحبة من يطيق بالحسام الفاصل ، ان كان الفتح حاصلا فما معنى الشكوى ؟ أو لم يحصل فحتى متى البلوى ؟ وهذا الدين الذى يلوى ، وغريمه مع اللدد يهوى ، والهوى مع انصرام العمر فى هذا المهوى . أين الثمرات يا شجر الجور ؟ أين الراهبى يا عاجلى البطة فى است الثور ؟ !!

ثناؤكم على الناس تقليد ، وشأنكم فى الاختبار شأن البليد ، وعقولكم يرتفع عنها عقل الوليد !!

ثم ان هذه العوائد التى تشتكى ، ويضحك لها ثم يبكى ، ويتلذذ بذكرها حين تحكى . لم تضايق الايمان ، ولا رفعت — والحمد لله — الامان ؟ انما هى — بزعمكم — حب دنيا لا يعارض العقد ، ولا يباين الوعد . والعوائد تعالج مع بقائها ، وعمران نافق بها ، بأودية شرعية تنير عبوسها ، وتذهب بوسها ، وتملس أديمها وتؤنس عديمها . صعب عليكم استعمالها ، وسهل لديكم اهمالها ، ورمتم الغايات بالترهات ، والحقائق بالشبهات ، ودعوى الدرجات مع الدرجات ، والشريعة لم تذهب ، والمدارس لم تخرب ، والكتب لم تحرق ، وسيرة النبى

(151 : ب) والسلف الصالح لم تختلس ، ولم تسرق بينكم من الوسائل الشرعية والذمم المرعية .

أين الصدقات اذا حدقت الى الاكف الحدقات ؟ أين زلف الليـل ؟ آين الزكاة المتوعد ممسكها بالويل ؟ أين الجهاد وارتباط الخيل ؟ أيـن الحج وركبانه يتدافع تدافع السيل ؟ أين تلاوة القرآن الذى تطمئن بـه القلوب ؟ أين الخلق الذى لا يصح دونها المطلوب ؟ أين الحظ المغلوب ؟ أين الصبر والسكون وانتظار الفرج ممن يقول لشيء كن فيكون ؟ أيـن قيدها وتوكل ؟ أظنه أشكل ؟ أين الانفة من الاشتهار ؟ أين الانيس بالخلوة بياض النهار ؟ عدل عن ذلك كله الى البخل على المساكين ، والسلاطة على الدكاكين . وهجر المورد المعين ، والتعويل على الوصول الى الله مـن خوخة ابن سبعين ، والحرمان تتضاعف مكاسبه ، والمقصد الخبيث يمده الشيطان بما يناسبه . مقام التوبة لم يحصل ، وبسوء الولاية تفصـل ؟ عفو والعقد الصحيح لم يبرم ، والمحرمات بعد لم تحرم والمواجـد يخطب بها المحل الاكرم !!! القواعد بعد مضاعة ، ومعرفة الله قـد (152 : أ) قد جعلت براعة الخلق لم تهذب ، والنفوس فى التماس الكمال تعذب . ثمرات العمل لم تحصد ، وغاياتها فى الحوانيت تقصد . كـأن جمهور المسلمين ممج مهمل ، كأن الانبياء لم تبين ما يعمـل ، كـأن الشريعة ليس لاوضاعها سوق ، ولا لنخلها بسوق . كأن الشافعى أو مالك ليس بسالك ، وأن من دون أشياخكم هالك . هذا لو كان لكم أشياخ ، أو ليسير جيرتكم منـاخ !!

انما هى أعلام للشهرة تنصب ، وتيجان للحظوظ تعصب ، النسى يذكر والذكر ينسى ، وظهور الولد والمساكين تعرى ، والخليلى يكسى ، وابدأ بمن تعول يوسع رسمه طمسا ، والاعتدال يحكم فيه الجدال . بالله خلوا عنكم الاصطلاح الخالى ، وهذا التنوين الغالى مع حرمان المخالى. والقنوع بالفراغ مع حرونة المزاع . والغليان الذى يبغضكم الى اللـه والى خلقه ، وهمم الشهداء فى رقة، مع الغفلة عما أوضح لكم الشرعمن

حقه ، وتخطى الطاهر المضمون الى المشكل المضنون . فلو كان سيركم مستقيما لم يكن القياس عقيما . عميان قد هجرت (152 : ب) الكحال ، وأملت فى رد ابصارها المحال !!

ما الذى رابكم – آنس الله اغترابكم – من سيرة السلف الذين تجروا وكسبوا ، وانتموا لغنى الاكف وانتسبوا ، وتصدقوا ووهبوا ، وجاهدوا وحجوا ، وما انحرفوا ولا لجوا ، وبسيرة أعلامهم احتجوا ، وسعوا والتمسوا ، وأكلوا الطيب ولبسوا ، وجوارحهم بميزان الشريعة أرسلوا وحبسوا ، وشهد لهم بالخلاص عقدهم الذى حفظوا ودرسوا . لم يزمعوا لغير الضرورة طلاقا ، وأشفقوا من فراق أهليهم اشفاقا ، ولا حلوا لحسن العهد نطاقا ، ولا قتلوا أولادهم املاقا (26) ولم يضرهم – مع الاستقامة – معاشهم ، ولا قطع بهم – عن الله – أثاثهم ولا رياشهم ، بل – الى فئة الحق – انحياشهم ، وأنتم – على الحقيقة ومن لكم بذلك – أوباشهم . وان قلتم : وسعوا ما ضاق عنه احتمالنا ، ولم تستطعه أعمالنا ، فهلا تفطنتم وانتبهتم ، وتكفلتم هديهم وتشبهتم ؟ !!

تظنون أنكم غاب عنكم ما دركتم ، وأعجزوا عما اليه تحركتم ! وهب أن ثم مقامات عالية ، ولمقدمات أصل (153 : أ) الشريعة بزعمكم بالية ، هلا استريتم اذا لم تدركوها ، وان لم تحصلوا منها الا على أن تحكوها ، فرجعتم الى الاصل المجرد والطريق المقرر ، فمن ضل وجب عليه أن يعرس حتى يصبح ، ويبدو المميع ويتضح . فاقتحام المفاز بلا دليل شأن غير النبيل ، وبالانقطاع كفيل .

ويا ليتكم بلغتم درجة البله المشهود بتوفيقهم ، وصحة طريقهم.

---

26) اقتباسا من قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » الانعام : 151 . او قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم .. » الاسراء : 31

ومن أجهده الحزن أسهل ، ومن تحير وجب عليه أن يسأل ، وترك اللجاج أجمل ، ومن يرب الامر يتأول ، ومن لم يستيقن فلا يعجل ، والطريق التى احتقرتم — والله — أهمل ، وأحجكم بالشيخ عبد الجليل (27) الذى ظلمتموه ، وبكشف الغيوب اتهمتموه ؛ وبالولاية حددتموه ووسمتموه . وهو يقوم على السبب بيعا وشراء ، واعمارا وكراء ، ويصلح من كرمه الذى لم يبلغه ولم يرمه ؟ فان قلتم ذلك شيخ هداية ، فقد كان ذا بداية ؛ ومفتقرا مثلكم الى داية ، فلم تلح عليه من شىء مما أنتم عليه آية ، ولم يطلق زوجه مجانا ، ولا تطارح فى مصلى الجنائز عريانا ، ولا خطت (153 : ب) منه فى مجال النجاسات رجل ، ولا دب الى وادى الحمة (26) كأنه عجل . فعلام عولتم فيما ناولتم ، القديم مخالف السمت ، والحديث متهم بالعوج والامت ، أعلى أهل السبت ، ومن حكم عليه بالكبت ؟!!

نستغفر الله ذا الجلال ، ونستهدى به من الضلال ، ونتبرأ اليه من نفوس عجل لها العذاب (27) ، حالك يا أبا سعيد والقريب البعيد فمورد المودة لم ينضب معينه ، ولا التبس بالشك يقينه ، ومن أعان مستقيما

---

27) لم يعرف به المؤلف اكثر ، فلعله شيخ معاصر ، له ملابسة ، موضوع الرسالة .

28) الحمة او الحامة : هى Alhama بلدة بالاندلس فى الجنوب ، تقع قرب مدينة ريحانة من اعمال « المرية » ، وقد اطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة الى العين الحارة التى بها ، والتى هى مقصد كثير من ذوى العلل والاسقام ، وما تزال العين باقية حتى اليوم ، بالاضافة الى جزء من الحمامات العربية القديمة . وقد وصفها ابن الخطيب نفسه فى « معيار الاختيار » بقوله :
« أجل . الصيد والحجل ، والصحة وان كان المعتبر الاجل ، وتورد الخدود وان لم يطرقها الخجل . والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبر كأنه قطع الذهب ، والحمة التى حوضها يفهق بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمت ثنيتها بالنسب الى ثنية النعيم ، قد ملأها الله اعتدالا ، فلا تجد الخلق اعتياضا عنه ولا استبدالا ، وانبط صخرتها الصماء عذبا زلالا ، قد اعتزل الكدر اعتزالا .. »
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص : 39 ، وابن بطوطة فى « الرحلة» ج 2 ص 187 .

فالله يعينه . ومن يتصل بكم من جفاء فهو ــ علم الله ــ تأديب وتهذيب، وغيره يجدها ولى حبيب ، والله شهيد رقيب . ولو كان بودى لم تكن يدك مغلولة ، ولا نفسك على الشح مجبولة ، ولا ولدك عاريا ذليلا ، ولا الخير ــ ببيتك الخالى بالحبوب المختزنة ــ قليلا ؟ ولاهمتك على الجهاد فى سبيل الله كاسلة ، ولا خبائث المصطلحات عن حدبك ناسلـــة ولا استعديت على شحك بما رزئت من مالك ودمك ، سماعا من فمـــك ، فأصبحت من أغقها والرفض من شيمتك (154 : أ) فتفطن لما نزل بك ، وأسأل الله صلة بسيك ؛ وأعلم أنى بذلت لك النصيحة منذ زمان برسالة الغيرة على أهل الحيرة ، وقد علمت ثمال أمرك ، وضرب زيدك وعمرك. فلو قفلت ما جلت ، ولو سمعت ما كنت ، وفى المحال طمعت ؟ ولكنك معتدل التصريف ، مجانب للتحريف ، منفق فى سبيل الله للتليد الفانى والطريف ، جار من الاحسان ــ لك ولولدك ــ على السنن الشريف .

هذا جواب سحاءتك المشجعة ، ورسالتك القليلة الطحن الكثيرة الجعجعة (29) . وقد أغرتنا ــ والحمد لله ــ تلك الغرارة ، « وان النفس لأمارة »)30) ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ؟

**

تم الكتاب (31) بحمد الله المعين وبتمامه كمل جميع الديوان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ، صلاة تحل العقد ، وتفرج الكرب ، آمين رب العالمين ، وسلم كثيرا الــى يوم الدين .

(ونسخ) فى خامس ذى الحجة الحرام ، من عام ثلاثة وسبعــين وثمان مايـــة .

---

(29) اقتباسا من المثل العربى « جعجعة ولا ارى طحنا » والطحن : الدقيـــق ، والجعجعة صوت الرحى ، ويضرب المثل لمن يعد ولا يفى .

(30) اقتباسا من قوله تعالى : « وما ابرىء نفسى ان النفس لامارة بالسوء » سورة يوسف ، آية : 53 .

(31) « الريحانة » .

مراجع التحقيق و الدراسة

مـــراجع التحقيـــق والدراسة

المصـــــادر العربيـــــة :

1 ـــ الاحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، الجزء الاول . تحقيق عبد الله عنان ط. دار المعارف . مصر 1955 .

2 ـــ اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطى ، ط. القاهرة . 1326 .

3 ـــ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ـــ معجم الادباء . لياقوت الحمـــوى ط. مصر 1909 .

4 ـــ أزهار الرياض فى اخبار عياض . لشهاب الدين احمد المقرى ، تحقيق مصطفى السقا والابيارى وشلبى . ط. القاهرة 1939 .

5 ـــ الاعلام . قاموس لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين . خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية .

6 ـــ الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، لابى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق على محمد الحجاوى . مصر .

7 ـــ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى للشيخ ابى العباس احمـــد الناصرى . ط. الدار البيضاء 1954 .

8 ـــ انس الفقير وعز الحقير لابى العباس احمد الخطيب المعروف بابنقنفذ تحقيق محمد الفاسى . المركز الجامعى بالرباط 1965 .

9 ـــ الآثار الباقية عن القرون الخالية . لابى الريحان محمد البيرونـــى ، تحقيق ادورد ساشو ، ط. ليبسك 1923 .

10 ـــ الاغانى لابى الفرج على بن الحسين الاصفهانى . ط. دار الكتـــب المصرية 1927 .

11 ـــ بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة . للامام السيوطى . ط. مصر 1326 .

12 ــ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . للقاضى محمد بن على الشوكانى . ط. مصر 1348 .

13 ــ بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس ، لاحمد بن يحيى بن عميرة الضبى . مدريد 1883 .

14 ــ البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان . للشيخ ابى عبد اللـــه المديـــونـــى .
تحقيق ابى شنب . ط. الجزائر 1908 .

15 ــ التاج . تاج العروس من جواهر القاموس . للشيخ مرتضى الزبيدى مصر 1307 .

16 ــ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . لابى زيد ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون .
تحقيق ابن تاويت الطنجى . القاهرة 1951 .

17 ــ تاريخ الادب العربى . عمر فروخ . دار العلم للملايين ببروت 1965.

18 ــ تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب)
تحقيق د. أحمد العبادى ، ومحمد ابراهيم الكتانى. الدار البيضاء1964

19 ــ تاريخ اسبانيا الاسلامية . للمستشرق ليفى بروفنسال ، (الجـــزء الثانى من أعمال الاعلام لابن الخطيب) بيروت 1956 .

20 ــ تاريخ الفكر الاندلسى للمستشرق انخل بالنثيا ؛ تعريب د. حسين مؤنس . مصر 1955 .

21 ــ تاريخ آداب اللغة العربية . جرجى زيدان . دار الهلال. مصر 1931.

22 ــ تاريخ الرسل والملوك لابى جعفر محمد بن جرير الطبـــــرى . دار المعارف . مصر 1963 .

23 ــ التكملة لكتاب الصلة . للامام أبى عبد الله محمد القضاعى (ابن الابار) مصر 1955 .

24 ــ جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ، لابى عبد الله بن فتــــوح الحميدى . تحقيق محمد بن تاويت الطنجى . القاهرة 1371 .

25 ــ جمهرة الاولياء وأعلام اهل التصوف . للشيخ محمود ابى الفيـــض المنوفى . القاهرة 1967 .

26 ــ جمهرة انساب العرب لابن حزم . دار المعارف . مصر 1948 .

27 ــ ابن الخطيب من خلال كتبه . محمد بن ابى بكر التطوانى . تطـوان 1954 .

28 ــ الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة . للشيخ احمد بن على المشهور بابن حجر العسقلانى . حيدر اباد 1350 .

29 ــ دائرة المعارف الاسلامية . (المستشرقون) تعريب ابراهيم خورشيد وزملاؤه 1933 .

30 ــ دائرة المعارف (اللبنانية) باشراف فؤاد افرام البستانى . بيروت 1962 .

31 ــ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب للسان الدين بن الخطيب . (مخطوطة) بالخزانة العامة بالرباط .

32 ــ سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحـــاء بفاس . للشيخ محمد بن جعفر الكتانى . طبعة حجرية بفاس .

33 ــ الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة . لابى عبد الله محمد بن محمد المراكشى . تحقيق الدكتور احسان عباس . بيروت 1964 .

34 ــ الشعر والشعراء . لابى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . تحقيق احمد محمد شاكر . القاهرة 1966 .

Obras de Autores Europeos

Aguado Bleye
Historia de Espania
TI, Madrid 1958

ALARCON, Y GARCIA DE LINARES
— Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la
Coronica de Aragon
Madrid. Granada, 1940

BROCKELMANN
— Geschichte der Arabischen Literature
Berlin 1898 - 1902

REMIRO, GASPAR
— Correspondencia a diplomatica entre Granada y Fez (s. XIX
Granada, 1616

GAYANGOS
— The history of the Mohammedan dynsties in Spain
Londres, 1840 - 1843

HUICI, AMBROSIO
— Las grandes batallas de la reconquista
Madrid, 1956

LAFUENTE ALCANTARA, EMILIO
— Inscripciones arabes de Granada
Madrid, 1860

LAFUENTE ALCANTARA, MIGUEL

— Historia de Granada

Granada, 1843

LEON AFRICANO

— Descripcion de Africa

Tetnan, 1952

LEVI, PROVENCAL

— La voyage de Ibn Battuta dans le royanme de Grenade

Melanges william Marcais

Paris, 1950

MULLER

— Beitrage

Munich, 1866.

SANCHEZ ALBORNEZ, CLAUDIO

— La Espana
Madrid, 1960

SACO DE LUCENA PAREDES, LUIS

— Documentos arabigo-granadinos
Madrid, 1961

SIMONET

— Descripcion del reinodè Granada bajoda de los nazarits
Madrid, 1860

BIMONET

— Descripcion del reino de Granada tomada de los autores arabigos
Granada, 1872

PRIETO Y VIVES

— De como debio nazer elreino de Granada
Madrid, 1927

فهرس المترجم لهم

فهرس المترجم لهم

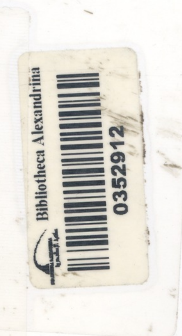
حسب ورودهم بالمخطوط

« القسم الاول » صفحة

القسم الثانى

محتويات الكتاب

صفحة



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧